دُون كارسْيَا دِي نَافَار

أشخاص المسرحية

دون كارْسيا : أمير نافار، وعاشق ألْفيرا.
دونا ألْفيرا : أميرة مقاطعة ليون.
ألِيز : أمينة سرّ ألفيرا.
دون ألْفونْسو : أمير مقاطعة ليون، يعُتقد انه أمير قشتالة (كاسْتي)، باسم مستعار هو دون سيلْفو.
دونا أنْييس : كونْتِيس، عشيقة دون سِيلْفو، وحبيبة موريكا مغتصب أمارة ليون.
دون ألْفارو : أمين سرّ دون كارْسيا، وعاشق أليز.
دون لوبيز : أمين سرّ آخر لدى دون كارْسيا، وعاشق ألِيز المرفوض.
دون بيدْرو : فارس دونا أنْييس.

الأحداث تجري في مدينة أسْتورْك الاسبانية،
في أمارة ليون

الفصل الأول
المشهد الأول

دونا ألْفيرا، وأليز.

دونا ألْفيرا : هذا الاختيار بين حبيبَيْن لا يفضّ المشكل الذي تسبّبه عواطف العاشق المتيّم، دون ان يروي الامير في هذا الموقف الحرج، غليل قلبه، على ما يظهر. فإن دون سيلْفو نظيره قد تجلّت في عينَيْه معالم انتصار البطل المجيد. وفضائل كلا الطرفَيْن بالإضافة الى عِراقة الحسب والنسب تُبرز في المغرمَيْن ميلاً سافراً الى هذا التفضيل المعلن. وأنا من جهتي لن أتوانى عن ذكر اسم الفائز في هذه المعركة العاطفية، اذا ما كان للاستحقاق وحده أفضلية الظفر. غير ان هذه القيود الهابطة في السماء لتجمع بين القلوب هي التي تدفعني الى تحقيق المصير المحتّم. لذا اخترت بين الاثنَيْن دون كارسيا.
أليز : هذا الحب الذي يملأ قلبك، لم يبدّل مجرى حياتك. لأن ميلك ظل طويلاً يتأرجح حائراً بين هذا العاشق وذاك.
دونا ألْفيرا : أجل، بين هذَيْن المتنافسَيْن النبيلَيْن في حومة الغرام إضطررت، يا أليز، الى خوض معركة ضارية، لأني عندما كنت أنظر الى الأول، لم أجد فيه ما يستدعي اللوم، ولأن نفسي كانت تميل اليه بشيء من الحذر والانحياز، بينما كنت مضطرة الى قبول الثاني بكثير من التضحية. لكن دون سيلْفو في آخر الأمر نال رضاي بما بذله في سبيلي من العطف والرعاية. مع أني كنت

أعارض ما يجري في عروقه من دم اسرة كستيّ (قشتالة) الوثيقة الصلة بابنة ملك مقاطعة ليون، وقد ربطتْ بيننا وشائج قربى عريقة، فضلاً عما يربط بين أبي ووالدها من مصالح مشتركة. وهكذا تربّع أحدهما على عرش قلبي، وأنا آسفة لإقصاء الآخر عني بكثير من الإحترام. اذ اشفقت على ما ابداه لي من هيام ومن رغبات ملحّة بغية استدرار عطفي، وهو يحاول أن يبدّد ما كنت أشعر به من ميل الى سواه.

أليز : لكن حب العاشق الأول، كما علمت، إصطدم برفضك المبرم، فاضطر الى تحويله نحو دونا أنْييس، رغم ما يربط بينك وبين هذه الكونتيس من أواصر الصداقة المتينة. فعندما إنكشف هذا السرّ لعينيك تصرّفت بحرية تامة، وبدون خوف أصررت على الابتعاد عن هذا المحب، غير مبالية بما يقدّمه لك من براهين مودّته.

دونا ألْفيرا : لا شكّ في اني أحبّذ هذه البادرة التي بيّنتْ لي أن دون سيلْفو أصبح من المقرّبين إليك، رغم ما يسوم ذلك قلبي من عذاب أليم. ثم رحتِ تبتعدين عنه خشية ان تسوء الامور بيني وبينك بسببه.

أليز : لكن بدون ان يَبلُغه على لسانك أي كلام ودّي، هل تلومينه اذا شكّ بنواياك وبتوجيه عواطفك نحو سواه.

دونا ألْفيرا : لا، لا. هذا الحسد المقيت لا يبرّر سخطه المحموم. فقد أخبرته أنا ان باستطاعته ان يكتسب حبك اذا استخدم لغة رقيقة في مخاطبتك، ولجأ الى التنهّد والنظرات المسترحمة واحمرار الخدّيْن والسكوت أحياناً للإفصاح عن نداء قلبه الولهان. فكثيراً ما يكون وضح النهار أبلغ بما لا يُقاس في المناجاة من عتمة الليل، لأن جنسنا اللطيف يتمسّك كثيراً بالشرف الرفيع الذي لا يسمح بالإفصاح عمّا نشعر به من العواطف النبيلة. أنا أعترف بأني شئت ان أعدِّل سلوكي وأعمد الى الموازنة بين صفات هذا وذاك. ولكن عبثاً نحاول أن نخالف رغباتنا الحقيقية الخفيّة. اذ لا بدّ لنا من كَبْت بعضها، وإرخاء العنان للبعض الآخر نظير ماء الجدول النقي المنساب، وهو يجري من الينبوع على سجيّته. ولا أخفي عنك أن صداقتي لدون سيلْفو، مهما هزّت مشاعره، كانت

تضلّلني بدون علمي، وتفرض على الامير مثل هذا الجحيم، بمجرّد بَوْحي بأكثر مما كنت أودّ أن أصارحه به.

أليز : أخيراً، اذا كانت الظنون التي تحوم حول هذا العاشق الظريف باطلة، وانت ذاتك تحكمين بأنها لا تستند الى أساس من الواقع، فما عليك إلّا ان تعزّزي إعتقادك. مع أن هناك تصرّفات تدلّ على غيرة حاقدة وتؤدي الى أوْخم العواقب، طبعاً اذا انطلقتْ من حبّ مباغت لا يروق لنا. غير أن ما يُظهره العاشق من تفجّعه، لا بدّ من ان يُلفت انتباهنا ويستدرّ عطفنا. لأنه بذلك يعبّر عن أصدق ما يحفظه صاحبه بين ضلوعه من هيام. وكلّما استبدّت بنا الغيرة، كلّما ازداد هوانا زخماً نحو أمير مميّز ...

دونا ألْفيرا : لا تتشبّثي كثيراً بهذه الحكمة المأثورة. فإن الغيرة في كل زمان ومكان لم تكن إلّا مسخاً بغيضاً لا سبيل الى تجميل بشاعته المُذلّة. وكلما كان الحب عزيزاً مترفعاً كانت معاكسته اكثر إيلاماً. وهذا تماماً حال الامير العاشق الذي يوحي بالاحترام للمُغْرَم الحقيقي الذي يطغى عليه حسده ويسلبه كل طمأنينة وسرور، ويجابهه بانظار عاشق منافس يرفض التفاهم والوئام. لا، لا. ان هذه الظنون تجرح فؤادي فتضطرني الى التصريح بأفكاري الحقيقية بطريقة سافرة. فأقول ان دون كارْسيا عزيز على قلبي، وليس مستبعداً ان يستقطب عواطفي ويمتلكها بما يبديه من شجاعة في ادارة شؤون مقاطعة ليون وما يُظهر من ميل نبيل الى اكتساب حبي، متغلّباً على كل الصعاب ومتحدّياً جميع العراقيل التي تعترض سبيل تحقيق احلامه بإجراء مراسم زفافي اليه. وأنا مرتاحة الى اختياره الموفّق، يا اليز، وسعيدة بأن اكون شريكة حياته، واربط مصيري بما كُتِب له من غار الامجاد وغبطة الهناء، أشاطره تذوّق افراح الفردوس في ظلال هيام هادئ أمين. فإن العواطف الصادقة ترتع دوماً في جوّ الملذات المشروعة، لا تشوبها مجازفات مهووسة أو تقلّبات مزاجيّة مقلقة. وانا الآن اشكر حسن حظّي الذي وضعني بين يديه. واذا أعادت الظروف المؤاتية أخي الينا لينعم مرفوع الرأس بمقامه السامي، يكتمل فرحي بمشاهدة شخصه الحبيب، وأكون مسرورة اذا علمت بأنه تخلّص نهائياً من هوسه وغيرته. فأنا مقتنعة بأن الواجب يقضي عليه بصدّي أنا دونا الفيرا، إذْ لا سبيل

الى الربط بيني وبينه بوثاق الزفاف الذي لا أوافق عليه، والذي سينقلب حتماً الى جحيم، لا يطاق لكلَيْنا في حال تحقيقه عنوةً.

أليز : حتى إن شعرتِ بميلٍ الى رجل آخر، يا سيدتي، سيتّجه حبك دائماً، على ما أعلم، الى الامير. وحين يقرأ اشواقك في عينيك ...

دونا ألْفيرا : أنا لا اريد، يا أليز، ان تفضح انظاري ما أخبئه في أعماق صدري، بل افضّل ان يبوح له بها لساني عندما يحين الأوان المناسب. أمّا الكتابة فتجعل من اليد شاهداً على العاشق الولهان لا سبيل الى تكذيبه. وعليك في هذا الحال ان تحولي دون وصول أي سطر مني الى هذا الامير المتربّص.

أليز : ارادتكِ، يا سيدتي، شريعة لا بدّ من تطبيقها. وانا أحمد الله على تنويع الأذواق. اذ ينظر البعض الى أمرٍ ما كأنه إهانة، والبعض الآخر كأنه مديح. أمّا أنا فأرى في مصيري حلاوة يتوق إليها العاشق، وأصفّق انا لها ابتهاجاً وارتياحاً. بينما هو يكاد يقتله السأم من جرّائها. ولكن ما يضايقني حقّاً هو أن لا يبدو من دون الفارو أي اكتراث لما يهمني.

دونا ألْفيرا : أنا لا أظنّ أنه بعيد من هنا ... بل ها هوذا قادم.

المشهد الثاني

دونا الفيرا، ودون الفارو، وأليز

دونا ألْفيرا : عودتك ادهشت الجميع، فماذا لديك من أخبار ؟ هل سيأتي دون ألْفونْسو، وهل لنا أن نترقّب رجوعه قريباً ؟

دون ألْفارو : نعم، يا سيدتي. ان أخي الذي ربي في قشتالة (كاستيّ) يعتقد ان وقت رجوعه قد حان. حتى الآن صاحبك دون لويس الذي كان يحيا في حذر دائم من الملك المناوئ، قد أخفى عن مسؤولي الدولة، مكان إقامته، وذلك ليتجنب غضب الخائن موريكا المستبدّ الذي حاول مراراً ان يقتلعه ويحكم مكانه. لذا لم يأمن، رغم مساعيه المخلصة، من شر تظاهره الباطل

بالتودّد والوفاء. لكن الشعب الذي انتفض بسبب تحامله عليك ظلماً وبهتاناً، لم يشأ أن يهادن قوّته الغاشمة. وكذلك هذا الشيخ الكريم. ظن أيضاً أن الوقت قد حان فقصد تحقيق الأمل بالنجاح الذي تاق اليه وانتظره عشرين عاماً. وحاول القيام بانقلابه في مقاطعة ليون، وانزل ضربته المريعة بكبار الدولة وبالشعب معاً. بينما كانت قشتالة تجنّد عشرة آلاف رجل لتُردّ الى الامير الأصيل كل حقوقه المشروعة. ولكن لا بدّ أوّلاً من صيانة سمعته، وهو لا يودّ العودة إلّا على رأس جيشه، لكي يقتصّ من المغتصب الجبان الذي خان عهد مولاه. ويردّ الإعتبار أيضاً الى مقاطعة ليون المحتلّة والى شخص دون سيلفو الذي هبّ الى إغاثة والده المخلوع ...

دونا ألْفيرا : أجل ان نجْدته الفعالة راودت أملنا في الانتصار. لكني أخشى ان ينوء أخي تحت عبء واجباته.

دون ألْفارو : نعم، يا سيدتي. تصوّري انه أمام العاصفة التي أثارها المغتصب، كان كالإعصار يهزه هزّاً. وها هي الأصداء التي وصلتنا من مقاطعة ليون تنبئ بعض المقرّبين بأن الكونتيس دونا أنْييس ستقترن به.

دونا ألْفيرا : إن تزوج هذه الفتاة الممتازة، يكون قد بحث عن سند قوي تحتاج اليه اسرته. أما أنا فإلى الآن لم أتلقَّ منها هي أي خبر، لذا تراني قلقة. لكني أعلم جيداً ان قلبها كان دائماً ينفر من هذا الطاغية.

أليز : اعتبارات عديدة في مجال الشهامة والعواطف تعترض رفضها وتحثّها على ...

دون ألْفارو : ها هو الامير قد أقبل الينا.

المشهد الثالث

دون كارْسيا، ودونا الفيرا، ودون الفارو، وأليز.

دون كارْسيا : جئت، يا سيدتي، لأثبّت من النبأ الحلو الذي شاع منذ برهة. ان شقيقك الذي يهدّد طاغية تثقل الجرائم البربرية على كاهله يملأ صدري رجاءً باستعادتي حقوقي الشرعية. وتصرّفه يفرش دربي بالمجد المحفوف بالمخاطر، الامر الذي يفرحني ويحزنني معاً. فبواسطته سأسترجع إن شاء الله عزّي بعدما انتابني الخزلان والظلم. ومَن غيره قادر على إحباط مؤامرة الخيانة ليعيد اليّ كرامتي وسلطتي الموروثة. وما يعجبني اكثر هو أن يكون شقيقك من يعيد اليّ مقامي الرفيع. وهكذا أسترجع ايضاً حبك الغالي. هو يعمل المستحيل لِيُرجع اليّ تاجي واعتباري في نظر الجميع. وأملي أن لا ينظر اليّ إلّا لشخصي بالذات، كما تمنيت الف مرة، وأن لا يكون له من خلال هذا الصنيع أي مأرب أو مطمع خفيّ بجمالٍ فتّان كبهائك. غير أني استبعد حدوث ما يعكّر صفاء مثل هذه التضحية الصادرة عن مودّة ووفاء من قِبَل اخيك لارجاع دولتي اليّ أنا سيّدها.

دونا ألْفيرا : انا اعرف جيداً، ايها الامير، انك قادر على استرجاع حقوقك المغتصبة، كما أنت بليغ في تنميق الحديث عن أَلْفِ انجازٍ ناجع تخطيطاً وتنفيذاً. لذا ليس بالغريب ان تستردّ دولتك بواسطة اخي المخلص. وأومن بأني انا دونا الفيرا لن أبخل ببذل الجهود اللازمة للتغلّب على ما تلاقيه في دربك من المصاعب.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي، أنا ادرك تماماً ما تتفضّلين بقوله. وأعرف جيداً ان قلبي يطمع عبثاً بنيل رضاك، وأن العقبة الكبيرة التي تعترض سبيل ما احفظه لك من هيام ليس بسرٍّ في نظر كل انسان من محيطنا.

دونا ألْفيرا : كم يسمع المرء خطأً ما يظنّ أنه بلغ مسمعه صحيحاً. ومن المغالاة في الحب أحياناً، ايها الامير، كثيراً ما يتشبّث الانسان بغلطه. وبما أن عليّ أن أتكلّم، هل تودّ ان تعرف متى يمكنك أن تكتسب مودّتي وتأمل باستمالة عواطفي ؟

دون كارْسيا : هذه منّة تجودين بها علي، يا سيدتي.

دونا ألْفيرا : حين تتقن كسب مودّتي كما يجب، يصبح هواك حقيقة ملموسة.

دون كارْسيا : ومتى يكون ذلك ؟ وكيف يتسنّى للمرء ان لا يبهره نور عينيك النجلاوين ؟

دونا ألْفيرا : عندما لا تبرُز أشواقُك ما تستحي منه الحسناء التي يملأ حبّها صدرك.

دون كارْسيا : هذا ما يصبو اليه فؤادي بكل جوارحه.

دونا ألْفيرا : أجل، حين لا توقظ ايحاءاتك في صدري مشاعر مشبوهة.

دون كارْسيا : أنا لا أكنّ لك سوى التقدير والاحترام.

دونا ألْفيرا : عندما يتسنّى لك ان تنقذني من غضب مسخٍ بغيض، وتسدي اليّ خدمة جليلة لن انساها ما حييت.

دون كارْسيا : هذا صحيح، يا سيدتي. لكن قلبي لا يرتاح كثيراً الى طلبك. لأني لست مطمئنّاً الى نواياك نحوي. فإن انقذتك من خصمك، ماذا يضمن لي عرفانك جميلي ؟ اذا لم تؤكّدي لي الآن شخصيّاً بأن لا تحرميني القليل الذي ألْتَمسه من حنوّك.

دونا ألْفيرا : شكواك ايها الامير، في غير محلها. فأنا محتارة في اختياري بين شخصك ودون سيلْفو الذي لا يُضفي غيرته عليّ. وها أنا أسمع من فمك ما لا يجعلني ارتاح تماماً اليك. لأنك تفرض عليّ ان أصرّح لك بحبّي بدون ان تمنحني الوقت الكافي لأتبيّن وأتلمّس إتّجاه ميل قلبي.

دون كارْسيا : يا سيدتي، لست غبيّاً كي لا أدرك مرامك. لا أنكر أني ربما كنت جسوراً اكثر من المعتاد. وأعلم أنك تقدّرين قليلاً شجاعتي، وهذا ما يحملني على الأمل باكتساب كامل رضاك.

دونا ألْفيرا : يسرّني ان تكون وطيد الحزم بعيد النظر، أيها الامير، وأن لا تبخل ببذل الكثير من جهودك في سبيل رضاي.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي. يكفيني ان تقولي كلمة واحدة، لكي تريني

أطوع من بنانك مهما كانت المخاطر والعقبات التي سأجابهها، جسيمةً. (يأتي دون بيدْرو، وبيده ورقة).

دونا ألْفيرا : أنا قلقة، لأن البريد قد تأخر. هل أعتبر أن هذه الرسالة التي تشغل بالك، ايها الامير، تضطرك الى التريّث في إتخاذ قرارك النهائي ؟

دون كارْسيا : ظننت أن هنالك سرّاً بينكما، ولم أشأ أن أتطفّل عليكما.

دونا ألْفيرا : ان ما اسمعه منك بلهجة جديدة يدل على أنك غير مطمئنّ، وتخشى حدوث تبدّل مباغت. فاسمحْ لي بأن اصارحك بأني أنا التي فوجئتُ بهذا التغيير غير المرتقب. فما هو السبب ؟ هل لي أن أعرفه ؟

دون كارْسيا : نعم، سببه علّة انتابت قلبي الحائر.

دونا ألْفيرا : كثيراً ما يُصاب الانسان بعلل خفيّة تحتاج الى معالجة سريعة. فهل يسعني ان أعلم مصدر اضطرابك ؟

دون كارْسيا : أحياناً نحن نحتاج الى دواء خاصّ.

دونا ألْفيرا : أرجوك، أيها الأمير الضعيف، أن تبادر الى مداواة دائك الذي أعتقد انه ليس متأصّلاً في الجسم، بل في النفس.

دون كارْسيا : هذه الرسالة، يا سيدتي، هل أصل العلّة، وأتوجّس منها شراً. لأني ادركت ما ترمين اليه، وما تتهمينني به. فإذا ...

دونا ألْفيرا : دعْكَ من هذه الرسالة، وحوّلْ افكارك الى ما هو أهّم ...

دون كارْسيا : أنتِ تنعتينني بالضعيف وبالحسود الغيور. لا، لا. عليّ هنا، يا سيدتي، ان اصارحك بأن قلبي لم يضطرب قط بسبب هذه الرسالة. وإن أنتِ أتحتِ لي المجال كي أبرر تصرّفي، ثقي بأني لن أفعل.

دونا ألْفيرا : اذا تعنّتَ وأصررت على هذه السلبيّة، اكون مخطئة لأني ادفعك الى العنف. ولكن عليك أوّلاً ان تعرف من هو كاتبها.

دون كارْسيا : لقد تعوّدتِ دوماً ان تريني أسايرك، فأصبح تماديك بالنسبة اليك متعة لذيذة تحبّين تذوّقها.

دونا ألْفيرا : أجل، أجل، ايها الامير الخطير. أرجوك ان تتناول الرسالة وتتلوها لي.

دون كارْسيا : لكي أدخل البهجة الى قلبك على الاقلّ، يمكنني أن أقول ...

دونا ألْفيرا : قُلْ ما شئتَ. المهم ان تعجّل وتقرأ.
دون كارْسيا : هي من قِبَل دونا أنْييس، على ما أرى.
دونا ألْفيرا : هذا يسرّني ويسرك على السواء.
دون كارْسيا (يقرأ) : « رغم الكره الذي ولّده احتقار الجميع، انعكس ميل الطاغية اليّ. ومنذ غيابك راح يصبّ عليّ جام غضبه ويعاملني بشراسةٍ لكي يخضعني لمشيئته، وهو دائب على تحقيق زفافك الى ابنه.

غير أن المتسلّطين عليّ بدافع الجبانة والمروءة المزيّفة، حسب إدعائهم، يوافقون على هذا المشروع الدنيء، وأنا لا أدري متى وكيف ستكون نهاية عذابي الاليم. غير أني افضل أن أموت كي لا يُقال اني كنت راضية بذلك. على كل حال، أتمنى لك، يا عزيزتي الفيرا، حظاً أسعد من الذي ألْقى من خلاله العذاب والهوان.

دونا أنْييس »

(ثم يعلّق قائلاً) : نظراً الى فضيلتها السامية، لا يُخشى عليها من الزَلَل.
دونا ألْفيرا : سأرد على هذه الصديقة الوفية. لكن عليك، ايها الامير، أن تتّقي من يدّعي الحق بتنبيهك الى وجود الخطر. ها قد هدأت خواطرك بما ألْقتْه الرسالة من ضوء على مشكلتك. واحمدْ ربّك على أن الأمر انتهى هذه المرة بخيرٍ وسلامة. وكي لا أكون كاذبة، أضيف : قد يمرّ بي زمن ربما تتبدّل فيه عواطفي.
دون كارْسيا : ما هذا الكلام ؟ هل حقاً يمكن حصول ذلك ؟ ...
دونا ألْفيرا : سأفعل ما اراه مناسباً. فالوداع. تذكّر كلامي. ومهما كان ما يظهر لي من حبك عظيماً، أرجوك أن تبرهن لي عن صدق عواطفك نحوي.
دون كارْسيا : ثقي بأن قضيّتك تسترعي كل اهتمامي، وبأني أفضّل فقدان حياتي على إمكان نقض عهدي لك.

الفصل الثاني
المشهد الأول

اليز، ودون لوبيز

أليز : كل ما أعلنه الامير هو كلام صادق، وهذا ما يدهشني. لان العاشق، وإن كان نبيل القصد تدفعه أشواقه الى الغيرة، وهذا امر طبيعي لا استغربه. غير أن ما يحيّرني، يا دون لوبيز هو أنه يُملي عليك ظنونه وشكوكه فتتأثّر أنت بها. وفي هذا المكان بالذات حيث كادت عيناك أنت، يا دون لوبيز، تثيران فيّ كوامن الغيرة، استفاق في أعماقي إحساس لم يفاجئني. حقّاً هذا تصرّف جديد من نوعه يحرّك أحاسيس الغيرة فيّ الحب، وقد برعتَ أنت في إثارتها.

دون لوبيز : لا استبعد أن ينتقد كل واحد منّا هذا السلوك. فكل إنسان يكيّف مشاعره حسب رغبته. واذْ اربكني ما كان من هواكِ، بتّ أميل الى التقرّب من الأمير.

أليز : هل تعلم أنه يسيء الى صالحه إن حاول سلوك هذا السبيل ؟

دون لوبيز : بربّكِ، متى شاهدناك، يا اليز الفاتنة ؟ لا يغربْ عن بالك أن الناس يبحثون عن فوائدهم لدى الرجال الكبار ؟ لذا ترين المتلّقين يحومون حول من يُصغي اليهم، ويتسترون على معايبه، ويتلافون ما قد يؤذيه من ثرثرتهم، شرط ان يغتنموا الفرص الملائمة. وللوصول الى اهدافهم لا يتأخرون عن الإشادة بكل ما له صلة بغراميّاته .. فيصفّق كالبلهاء لما يرونه من

إنجازاته، ويغفلون كل ما لا يرضيه، وهذا سرّ بقائهم معه على صلة وثيقة. لأن النصائح الصادقة تزعجه في أغلب الأحوال، وتحرم أصحابها من الوثوق بهم. وهكذا لا يستفيد من مثل هؤلاء الرجال سوى المراوغين الذين يسكتون عما فيه. من ضعف أو خلل ولا ينتقدون أخطاءه، بل يسترون ما يبلغهم عنه من مذمّة وإزدراء.

أليز : هذه الحِكَم قد تفيدهم بعض الوقت. لكن هناك نقائص لا بدّ من تدارك تبعاتها، وفي تصرّفات الكبار لا مناص من بروز ثغرات مهما حاول المراؤون أن يكتموها. لذا تحتّم عليّ أن أكلّم الامير بحرّيّة عن سياستك، لعلها تفيد في تزلّفك اليه.

دون لوبيز : بقدر ما احاول أنا أن أخفي هذه الحقائق، أعرف جيداً ان أليز تكتم الأسرار، فلن تنقل هذا الحديث الى أحد. على كل حال، لا داعي للخوف من وصول هذه الظنون الى من يعنيهم أمرها، لأنّ شكوك الأمير الغيور ليست في محلها. وإن لاكت الالسنة الطويلة ما يضايقه سماعه، لا أريد أن أزيح عن كاهلي عبئاً قد يؤدي الى أسوأ العواقب.

أليز : على كل عاشق نبيه ان يفعل ما يتوجّب عليه.

المشهد الثاني

دون الفارو، واليز.

دون ألْفارو : أخيراً علمنا بأن ملك نافار أعلن، لإرضاء الأمير أنّ فِرَقاً جديدة قد أُرْسِلَتْ لنجدتنا، وذلك في سبيل انقاذ حبّه التعيس المتمايد. وأنا متعجّب من مبادرته بهذه السرعة ... ولكن ...

المشهد الثالث

دون كارسيا، وأليز، ودون الفارو

دون كارْسيا : ماذا تفعل الأميرة ؟
أليز : اظنّ أنها تكتب بعض ارسائل، يا مولاي. سأعلمها بأنك هنا.

المشهد الرابع

دون كارسيا. (وحده)

دون كارْسيا : سأنتظر حتى يتمّ المقدّر. فقد حدث شغب جديد. ويجب عليّ كأمير، أن لا تقودني الأهواء العمياء الى هاوية لا قرار لها من القنوط والضياع. عليّ ان أستلهم ضميري وأن اتريّث في الانسياق وراء هواجسي. يجمل بي ان أعيد تلاوة نصف الرسالة الموجود في حوزتي، وأستنتج مضمون النصف الآخر، لكن، ألّا يكفي هذا النصف للكشف عن مدى حزني وتعاستي ؟

« مهما كان خصمك ...
عليك أنت أن ...
وفي داخلك جزء ...
من العقبة الكبرى ...
أنت تعامل بحنوّ هذا ...
لكي أتملّص من أيدي ...
حبّها وواجباتها ...
لكن ذلك قبيح في ...
هدِّئ لوعة هواك ...

واستحقّ الإلتفاتة التي ...
ولا تعاند أبداً ذاك ... »

أجل، مصيري يتوضح بهذه الكلمات. فان قلبه، نظير يده، يبرز هنا مجالهما، مع معاني هذه التعابير المشؤومة. فإنّ فحواها لا يحتاج الى بقيّتها لكي يصبح مفهوماً تماماً. على كل حال، لا بدّ من أن أتصرّف بهدوء، وأن أعامل الخائن بحذر شديد. لأن ما توصّلت الى ادراكه يستدعي الحيطة. ها هيذا قادمة. يجب أن أحكّم عقلي، وأن لا أتساهل حيال عشيقة تحاربني من الخارج.

المشهد الخامس

دونا الفيرا، ودون كارسيا

دونا ألْفيرا : انتَ شئتَ ان أدَعَك تنتظر.

دون كارْسيا : ها، ها. ماذا تخبّئين هنا ؟

دونا ألْفيرا : الآن علمت بأن والدك الملك يؤيّد مشاريعك، ويوافق على تحوُّلك الى واحد منّا. فأبهجني جداً هذا التساهل.

دون كارْسيا : نعم، يا سيدتي. وأنا ايضاً سررت. لكن ...

دونا ألْفيرا : سيصعب على الطاغية ان يتحاشى الصواعق التي يتوقّع انقضاضها عليه. وأجرؤ أن أُشيد بشجاعتك ضمن جدران مدينة أُسْتورْك التي تُنْتَزع من يده، فأعتبرها ملاذاً لي من غضبه. ليته يستولي على مقاطعة ليون برمّتها، فيقع رأس هذا الطاغية تحت سلطانه.

دون كارْسيا : سيذيع نبأ انتصاره خلال بضعة ايام. فأرجوك أن تخوضي حديثاً آخر، وتخبريني، يا سيدتي، لمن كتبت منذ أن قادتك ظروفك الى هذا المكان ؟

دونا ألْفيرا : لماذا هذا السؤال ؟ وماذا يقلق بالك في هذا الصدد ؟

دون كارْسيا : ليس سوى حبّ الاستطلاع.

دونا ألْفيرا : حبّ الاستطلاع هو وليد الغيرة.
دون كارْسيا : لا ليس مطلقاً ما تظنّين. فإن رغبتك في هذا المضمار تمنعني عن ذلك.
دونا ألْفيرا : لا أودّ أن أبحث عن السبب أكثر مما فعلت. لقد كتبت مرتين الى الكونتيس المقيمة في ليون، ومرّتين ايضاً الى المركيز دون لويس المقيم في بورْكوس. فهل يريح بالك جوابي هذا الصريح ؟
دون كارْسيا : أولم تكتبي بتاتاً الى شخص آخر، يا سيدتي ؟
دونا ألْفيرا : كلّا، لم أكتب. وإلحاحك هذا يدهشني.
دون كارْسيا : أرجوكِ ان تفكّري جيداً وتتيقّني، إذ ان نسيانك قد يورّطكِ.
دونا ألْفيرا : كلامي في هذا الموضوع مصدره ثقة لا يرقى اليها الشك.
دون كارْسيا : أحياناً، كلامك هو مدعاة تضليل وخداع.
دونا ألْفيرا : ما هذا الكلام، أيها الأمير ؟
دون كارْسيا : أجل، يا سيدتي.
دونا ألْفيرا : يا الهي، ما هذا الافتراء ؟ هل فقدتَ رشدك الى هذا الحدّ ؟
دون كارْسيا : نعم، نعم، فقدته لأني في زعمك، من شدة يأسي، قد تناولت سمّاً زعافاً، كاد يقضي على حياتي. إذ خُيِّل إليك أني صدّقت تصريحك حين غرّني لطفك الكاذب.
دونا ألْفيرا : اية خيانة يمكنك أن تُلصقها بي ؟
دون كارْسيا : ما أدهى لسانك المراوغ. وما أبرع تمويهك. لكني اعرف كيف أنجو من حبائلكِ. ألقي نظرة فاحصة على هذه الاسطر، وتعرّفي الى دلائل غشّك. فبدون مشاهدة الباقي، يسهل عليّ أن أفضح الوسائل التي لجأتِ اليها.
دونا ألْفيرا : هل هذا ما يقلق بالك ؟
دون كارْسيا : ألا تخجلين من رؤية هذه الرسالة ؟
دونا ألْفيرا : أنا لا أجد فيها ما يدعو الى الخجل.
دون كارْسيا : ليس أهْون من تكذيب هذه الاسطر التي لا تحمل اي توقيع ...

دونا ألْفيرا : لماذا تكذبيها، وقد كتبتُها انا بيدي ؟
دون كارْسيا : اني أقدّر صراحتك وإقرارك بأن هذه كتابتك. لكنّ الرسالة موجّهة الى شخص لا يأبه لها، أو على الأقلّ لا يكنّ أي عطف الى اية صديقة أو أي نسيب.
دونا ألْفيرا : لا، إنها موجّهة الى عاشق ربّيته انا على يدي، بل الى حبيب اهيم في هواه.
دون كارْسيا : ماذا أسمع، أيتها الفاسقة ؟
دونا ألْفيرا : قف عند حدّك من الأدب، أيها الأمير الخسيس، فإن جبانتك هي عنوان حقارتك. كن على يقين بأن قلبي لن يخضع ابداً لرغباتك. وأنا هنا لن أقدّم لك أي حساب. مع أني مصمّمة على انقاذ سمعتي من براثنك. وسأقاوم كل محاولة ستُقْدم عليها في هذا الميدان. وهذا أيضاً إيضاح كافٍ لا بد لك من ادراك معناه، وسأدافع عن مشاعري حتى آخر أنفاسي. انت مقتنع تماماً من براءتي، وسأفعل المستحيل لإدانة تماديك وتطاولك.
دون كارْسيا : هذا كلام تلقينه جذافاً، ولن يكون له اي وزن في نظري.
دونا ألْفيرا : ستبلغك أخباري قريباً. تعالي، يا اليز.

المشهد السادس

دون كارسيا، ودونا الفيرا، واليز.

أليز : سيدتي.
دونا ألْفيرا : لاحظي على الأقلّ إن كنتُ قادرة على تقديم بعض الخدمات، وبلمحة عين لدى أية إشارة أستطيع أن أحيطه علماً بما يجري. بذلك تخفّ وطأة المفاجأة التي أحْدَثَها ما سطّرته يدي من العبارات. هيّا أجيبيني. أين وضعتِ هذه الرسالة ؟
أليز : يجب علي، يا سيدتي، أن أعترف لك بأني مذنبة. فأنا لا أدري كيف

بقيت الرسالة على المائدة. والآن علمتُ بأن دون لوبيز الذي سمح لنفسه بالدخول الى جناحي الخاصّ، تسلّل وبحث في كل مكان حتى عثر عليها. وحين فتحها، حاولتْ ليونور أن تنتزعها من يده قبل أن يقرأها. فهجمتْ عليه وحاولت انتزاع الرسالة التي انشطرتْ الى نصفَيْن، بقي كل منهما في اليد التي تمسك به. وما لبث دون لوبيز أن بادر الى الهرب بسرعة، متشبّثاً بالقسم الذي لم تتمكّن ليونور من اخذه منه.

دونا ألْفيرا : هل بحوزتك النصف الآخر ؟

أليز : نعم، يا سيدتي، ها هوذا.

دونا ألْفيرا (**تخاطب اليز**) : ناوليني إياه، لأرى من يستحق اللوم. حسناً. (تخاطب دون كارسيا) : والآن إجمع هذا النصف الذي أحتفظ به، الى نصفك، ثم إقرأ لي بصوت عال لأسمع بوضوح ما تتضمنّه الرسالة من معلومات.

دون كارْسيا : **الى الامير دون كارْسيا. ها، ها.**

دونا ألْفيرا : تابع القراءة. عليك ان لا تكترث لهذا التوجيه.

دون كارْسيا (**يقرأ**) : « وإن كنت خصمك، ايها الامير، عليك أن تنتبه الى ما اقول، وأن تخشى من نفسك أكثر ممّا تخاف من سواك، وأن تهدم اليوم بالذات ذاك العائق الذي يحول دون تحقيق حلم هواك.

(أنا احبّذ كثيراً ما فعله دون كارسيا لينتشلني من أيدي الخاطفين الغاشمين. فإن مودّته وواجباته عزيزة على قلبي. غير اني أكره غيرته الشديدة.

« انقذني من الغضب الذي يصبّه عليّ، واستحقّ فائق التقدير الذي احتفظ به لك. وحين أُضطرّ الى تأمين هنائك لا تعاند وترفضه، لانك لن تجد له بديلاً).

دونا ألْفيرا : والآن قُلْ لي : ما رأيك ؟

دون كارْسيا : اصرح لكِ يا سيدتي، بأني لا ازال غير قادر على تصديق ما أبصرتْه عيناي وسمعتْه أذناي. وأرى أن في شكواي الكثير من الظلم الذي لا يُطاق، وأني لا قبل لي على تحمُّل وطأة هذا العذاب.

دونا ألْفيرا : كفى. واعلم اني ما قصدت أن تقع هذه الرسالة تحت أنظارك، إلّا لكي أُكذّب ما جاء فيها من إدّعاءات باطلة، وأؤكّد لك مئة مرة ما قلته أنا سابقاً وما قرأته أنت في هذه اللحظة بالذات. فالوداع، أيها الأمير.

دون كارْسيا : يا للأسف. أتساءل الى أين تريدين أن تهربي، يا سيدتي ؟
دونا ألْفيرا : الى حيث لن يكون لك أي وجود، أيها الغيور الثقيل الظلّ.
دون كارْسيا : أعذريني، يا سيدتي، انا العاشق المسكين الذي جعلتْني الظروف في عرفك مذنباً بغيضاً. فقد أثير غضبكِ، وأظلّ معرّضاً للملامة اكثر من البراءة. ليس من امل حلو لا يشوبه الخوف. وهل يمكنك ان تعتقدي لحظةً ان قلبي هائم، لو لم تنبئك بذلك هذه الرسالة، ولو لم يرتجّ ضميري هلعاً تحت وقر الصواعق التي كادت تهدم كل كياني ؟ انت احكمي إن كانت غلطة كهذه لا تهدّ حيل أي عاشق آخر، ليتني أستطيع أن أكذّب مثل هذا البرهان الساطع ...
دونا ألْفيرا : اجل، أنت قادر على فعل ذلك. لأنك رغم عواطفي المعلنة، تلاقي ظنونك تجاوباً أكيداً. فلا تخف، إذ ان اعترافي يتحدّى شهادة العالم أجمع.
دون كارْسيا : كلما قلّ إمكان استحقاقنا ما نأمل به من خير، كلما ازدادت دواعي تحقيقه وفوزنا بالنجاح الذي يبدو رجاء حصوله ضئيلاً في نظرنا. لأن العديد من الشكوك يحوم حول سلوكنا. أمّا أنا من جهتي وقد نلت قليلاً من الحظوة في عينيك الطامحتين بالعطف والحنوّ، فإني أكاد لا أصدّق ما أكسبتْني اياه جسارتي من سعادة وهناء. فاعتقدت ان قوّتك وسماحة نفسك قد ساهمتا في نيلي رضاكِ المشوب ببعض القسوة ...
دونا ألْفيرا : وهل يسعني أن أنحطّ في الجبانة. الى هذا المستوى ؟ فأتّخذ أنا موقفاً يبدو معيباً، وانقاد الى الدناءة والحقارة، وأخون مبادئي ومشاعري. وحين أكون أمامك ألجأ الى قناع من الرقّة واللطف لأستر تباعدي عنك. فالمجد لا يغريني، كما تدري، وكما اعلنته انت لي مراراً. فاعلمْ اذاً ان قلبي لن يتذلّل ولن تستطيع أية سلطة على الأرض دفعه الى التسكّع. ومهما بدر مني من دلائل طيبةٍ مشكورة، لم تستحقّها انت يوماً، سأظلّ انا فوق كل هذه الشبهات، رغم هيمنتك، لأن الحقد لن ينجح في اخضاعي وإكراهي. فأنا أتحدّى غضبك، وأعلن لك بأني لست، ولن أكون يوماً جبانةً.
دون كارْسيا : اذاً، انا مذنب، ولا انكر ذلك. غير أني ألْتمس منك أن تَمُنّي

عليّ بحلمك. واذا كان غضبك لا يلين، وكان جرمي لا يستحق غفرانك، أنظري بعين عطفك الى قلبي الولهان الذي يتمنّى رضاك ليكون اسعد الناس. وإن اعتبرتِ أنّ تصرّفي قد أزعجك، أرجو ان تعلمي بأني لا أقوى على العيش ساعة واحدة، إن لبث غيظك مسلطاً سيفه على رقبتي. على كل حال، لا تنسَيْ أني نادم على إساءتي اليك. فما عليك إلّا ان تجودي عليّ بعفوك. وان لم يكن هناك من أمل في مسامحتي، فهذا سيفي أستلّه وبطعنة قاضية أنهي حياتي لأستريح من عذاب صدّك. تبّاً لقلبي اذا لم ينعم دوماً بحنوّك، وما أكرمك إن قبلتِ اعتذاره وندامته. وإلّا فضّلتُ الموت الف مرّة على استمرار بعدك عني وحرماني من بلسم ألْطافك. وهذا جلّ ما أصبو إليه، وألْتمسه من عواطفك الرقيقة الكريمة.

دونا ألْفيرا : آه منك، ايها الامير القاسي، البارع في المجاملة.

دون كارْسيا : تكلمي، يا سيدتي، واستجيبي لتوسلي.

دونا ألْفيرا : هل كُتبَ عليّ ان أظلّ هدف استعطافك بعد ان أغظتني بكل استهتاراتك ؟

دون كارْسيا : لا سبيل للفؤاد ان يُهين عندما يطفح حباً. واذا ارتكب هفوة فلا غرو انه يستحقّ العفو والغفران.

دونا ألْفيرا : الحب لا يسامح مثل هذا التصرّف الأرعن.

دون كارْسيا : أشواقه .. تزداد بقدر تصاعد حرارته. وكلما ازداد هياماً تضاعفت آلامه.

دونا ألْفيرا : لا، لا تخاطبيني بعد الآن بهذه اللهجة المحرجة، فأنت لا تستحقّ مني إلّا السخرية والازدراء.

دون كارْسيا : لماذا تكرهينني هكذا ؟

دونا ألْفيرا : أريد على كل حال أن أغيّر نظرتي اليك. لكني، يا للأسف، أخشى أن تفشل محاولتي، وأن يتضاعف غيظي الذي يسبّب انزعاجك، فلا يفضي ذلك بعدئذٍ إلّا الى تحريضك على الانتقام مني.

دون كارْسيا : لا تبذلي أي جهد لتلافي هذا العذاب، بما أني، لكي تتخلّصي

من مضايقتي، اعرض عليك تعجيل موتي. فأصدري حكمك عليّ بالإعدام وأنا انفّذه طائعاً في الحال أمام عينيك.

دونا ألْفيرا : من لا يعرف الحقد، لا يستدعي الموت.

دون كارْسيا : وانا لا أقوى على العيش بعيداً عن طيبة قلبك. فامنحيني صفحك عن جسارتي، وحُلِّي المشكلة إما بمعاقبتي أو بغفران ذنبي.

دونا ألْفيرا : يا للأسف، أظهرت نحوك في الماضي كثيراً من السماح. فإن قبلت ان أعفو عنك، أفلا يكون ذلك مني نقيض شعوري الحقيقي ؟ وكيف السبيل الى مقابلة شرّ الجرم بعدم احتقاره وبالتجاوز عنه ؟

دون كارْسيا : هذا كثير. عليك أن تصفحي عني، ايتها الامير الفاتنة.

دونا ألْفيرا : دَعْكَ من هذا. فأنا ألوم نفسي على ضعفي حيال إلحاحك.

دون كارْسيا : أخيراً، أنا ...

المشهد السابع

دون لوبيز، ودون كارسيا

دون لوبيز : يا مولاي، أتيت لأطلعك على سرّ خطير لا بدّ من أن تحذر عواقبه.

دون كارْسيا : لا تكلّمني عن سرّ ولا عن تحذير في هذه الأوضاع التي تغمر هواي بالسعادة بعدما وقع عليه نظري من دليل قاطع، ولم يعدْ لدي من شكّ في صفاء الأجواء بيني وبين حبيبتي. ولا أريد سماع مثل هذه الأخبار المشؤومة. فأرجوك ان لا تتابع كلامك.

دون لوبيز : انا اريد ما يرضيك، ولا غاية لي إلّا خدمة مصلحتك. لقد ظننت أن السرّ الذي اكتشفته صدفةً يستحقّ إطلاعك عليه. ولكن بما أنك ترفض الوقوف عليه، أودّ أن أقول لك، يا مولاي، لمجرّد تغيير الحديث، أن الأهالي في مقاطعة ليون يرون أبناء الأُسَر ينتزعون الاقنعة عن وجوههم لدى علمهم

باقتراب حشود الجنود من قشتالة وان الشعب يواجه ملكه الأصيل ببهجة تجعل الطاغية المعتدي يرتعد هلعاً.

دون كارْسيا : لن تنتصر قشتالة. بدون ان نشاطرها هذا الفخر والمجد، لأن جنودنا هم على أتمّ الاستعداد لزرع الرعب في قلب المغتصب موريكا. لكن ما هو السرّ الذي جئت تطلعني عليه ؟ هاتِ ما عندك من الأبار.

دون لوبيز : يا مولاي، لا نبأ لدي أنقله إليك.

دون كارْسيا : هيّا، تكلّمْ. لم أعدْ أطيق الانتظار.

دون لوبيز : أقوالك، يا مولاي، أعلمتني اكثر ممّا انتظره. وبما ان ما يمكنني ان أبوح به لا يرضيك، على ما ألاحظ، يجمل بي أن ألازم الصمت.

دون كارْسيا : اخيراً، أُلحّ بإصرار على معرفة ما حدث.

دون لوبيز : لن أخالف أمرك. لكن وفائي لشخصك العزيزي، يا مولاي، يضطرني الى البوح بسرّ دفين. وأفضّل أن نخرج من هنا لكي أطلعك عليه، تاركاً لحكمتك أمر تقرير ما يجب عمله.

الفصل الثالث
المشهد الأول

دونا الفيرا، وأليز.

دونا ألفيرا : ما رأيك، يا أليز، بضعف قلبي الغريب الاطوار ؟ وبماذا أنبأك تساهلي حيال الأمير ؟ وما قولك اذا انهارت مقاومتي بسرعة، ورغم كل كراهيتي في جو المرح الذي يحيط بنا، اذا فقدت شجاعتي، وعفوت عن هذه الاهانة المخجلة ؟

أليز : انا اودّ ان تصفحي عمّا مضى، وليس أنبل من الغفران عند المقدرة. لا سيما والمذنب المحبوب قد جثا عند قدميك كاظماً كل سخطه وغضبه بدافع ما يكنّه لك من الحب والتقدير. لذا يجمل بك ان تشملي بعفوك كل إهاناته وتهديداته الماضية، لأن المسامحة من شِيَم الكِرام.

دونا ألفيرا : لا تنسي ان ما أسمعني اياه، واحمرّت له وجنتاي حياءً خاصة في المرة الاخيرة، لا تُغتفر، لانه لم يترك مجالاً للصلح. وأنا كرامتي عزيزة لن اتهاون في صيانتها والدفاع عنها مهما كلّف الأمر. فإذا صدق في آخر المطاف ووفى بوعده في المستقبل تكفيراً عن إساءاته. لكن ثقي بأني لن أرضى بأمير نافار زوجاً إلّا اذا شفي تماماً من علّته النفسية واطمأنّ قلبي الى عدم تكرار ذنوبه الماضية.

أليز : ولكن، ما هي إساءة طائشة تصدر عن عاشق غيور ؟

دونا ألْفيرا : هل هناك رجل اكثر حماقةً منه يبالغ بالسخط والاذلال ؟ وبما أني أبذل أقصى جهودي عندما أصمّم على الاعتراف بحبّه، وبما ان شهامة جنسنا اللطيف في جميع الازمنة الصعبة تقاوم بشدة مثل هذا الإقرار، فإن المحب الذي يتجاوز هذه العقبة لا بدّ له من الشك بالوعود. ولن يكون مُلاماً اذا لم يُؤْمن بصدق العهود إلّا بعد التجربة والاختبار.

أليز : انا من جهتي لا أسمح لنفسي إلّا بالقليل من الإرتياب في مثل هذه المواقف الحرجة. وكم يواجه من الخطر أي انسان يقع في حبائل الهوى ليقتنع، يا سيدتي، بأنه محبوب حقّاً، إذا ...

دونا ألْفيرا : لنكفّ عن النقاش، فلكل منّا رأيه. ويحزّ في قلبي أخيراً أن أشعر بأنّ عواطفي مجروحة، واني رغماً عن إرادتي أُحسّ بما لا يسعني أن أصفه من الضيق الذي ينبئني بأني انا والامير قد نختلف مجدّداً، رغماً عمّا تلقّيته منه من تأكيدات، آمل أن تكون هذه المرة صادقة ... لكن، يا الهي، ماذا يفعل الآن هنا دون سيلفو الآتي من قشتالة ؟ آه، لماذا أراه بجواري ؟ ...

المشهد الثاني

دون سيلفو، ودونا الفيرا، واليز.

دون سيلفو : انا أعلم أنّ قدومي يدهشكِ، يا سيدتي، وكذلك دخولي الى المدينة بدون رسميّات كأني خصم لا يسرّ استقباله، خاصة بعد احتجابي عن عيون الجنود زمناً. حقّاً هذا حدث لم تكوني تتوقعينه. وأنا أعتبر تحمّسك لمواجهتي كضرب من المعجزات. ولقد ارتعش فؤادي، وشقّ عليّ الابتعاد عنك فغامرت بكل رصيدي من التبصّر، وبادرت الى مشاهدتك العزيزة. وها أنا قادم لأقول لك اني أشكر الله على سلامتك، واني قاسيت الأمرَّيْن في البعد عن شخصك الحبيب، اذ اني في هذه المناسبة أفسحت المجال لمنافسي كي ينال حظوة في عينيك. أجل، يا سيدتي، إضطررت ردحاً من الزمن الى التغيّب

مرغماً، وانا احفظ لك في أعماق صدري مشاعر أجمل وأصدق مما ربما باح لك هو بها. لذلك تريني في هذه اللحظة بين يديك أَلْتمس عطفك ورضاك.

دونا أَلْفيرا : انا أعرف، يا مولاي، أنّ لك قلباً يخوض غمار المعارك غير هيّاب، وينتزع النصر انتزاعاً من سواعد الأعداء. ولا أشك لحظة بغيرتك وكرمك، وتفانيك في سبيل الانتقام لكرامتي. اني خاضعة لمصيري الذي يتقرّر في قشتالة. والجميع يدرون بما أبداه الكونت والدك من صداقة وإخلاص لجلالة الملك اخي. فبعد أن ساعده حتى آخر لحظة من مقاومته، لم يتردّد في منحه حق اللجوء الى دولته. وهو منذ عشرين عاماً يحتضنه ويحميه من الغضبات البربرية والمحاولات اللئيمة التي تهدف للغدر به، ويسعى جاهداً ليعيد اليه عرشه مُعزَّزاً، وانت شخصياً تكافح مثله لترد عنّا عدوان المغتصبين. أولست سعيداً بمبادراتك الكريمة، وببذل الغالي والنفيس لتمتين المودة فيما بيننا ؟ وها أنا أراك، يا مولاي، لا تألو جهداً لربط مصيري بمصيرك. يكفي شاهداً على ذلك ما تجود به نحوي من أفضال لا تُحصى. لكن، لا يغربْ عن بالك ما أنا غائصة فيه من سوء الاحوال، وانا مدينة ايضاً بالكثير في هذا الحقل لشخصٍ سواك. فلا تتعَجّب إنْ شاهدتني يوماً مرتبطة بأمجاد رجل آخر قادتني اليه ظروفي المستبدة.

دون سيلفو : نعم، يا سيدتي، فؤادي لا يكفّ عن الرثاء لحالك، وأنت تدفعينني بكلامكِ الجليّ الى هذا التصريح. واعلمي أن الشكوى تبدو غير محقّة عندما تصدر عن انسان بحقّ شخص اكبر منه سنّاً وقدراً. إن المساعدة التي تَلَقّيْنها انتِ واخوكِ من مزاحمي اللدود لهي بالنسبة اليّ عذاب مرهق. لكن هذا الألم، يا للأسف، ليس الأفظع. فالضربة القاضية هي أن أجد هذا المزاحم مفضّلاً عليّ. صدّقيني اني لا أجهل ما لخصمي من جميل عليك أيضاً، وهو يفوقني فخراً ومجداً. وما كلامي الآن سوى برهان على ما أحفظه لك من الودّ. مع ذلك ها أنا أقود جيشاً برمّته، وأخوض معركة طاحنة وكلّي تَوْق الى التغلّب عليه والفوز بحبك ونيل رضاك وأنا موقن بأنك تميلين الى سواي. لكنني أصرّ على الاخلاص لكِ وأحنّ الى إحراز النصر في نافار. آه، يا سيدتي، ليتني أعلم ما هو ذنبي كي أستحقّ هذا الجفاء الصارم ؟

دونا ألْفيرا : لا تسألني ما لا طاقة لعواطفي ان تمنحك إيّاه. ولا تلمني على فتوري الذي اراه يؤلمك. أجبْ نفسك بما يسعني أن أردّ به عليك. لأني لا أجهل ان السبب الذي يدفعك هو نبيل وسامٍ. ولا اخالك ترضى بأن أرتكب بحقّك خطأً مميتاً أنت تأباه لي ولك. فعلينا كلانا إذاً أن نقنع راضين بما حكمتْ به علينا الظروف من تضحيات قاسية. أنت محقّ في شكواك حين تلومني على رفضي. أجل، يا مولاي، هذه جريمة بحقّك وبحقّي انا ايضاً، لان إباءك لا يطاوعك على المغامرة في اكتساب حب جديد. أنا أفهم وضعك وأقدّر موقفك الحرج. غير أني مع ذلك ألْتمس منك أن لا تفرض عليّ ما تصبو الى تحقيقه حيالي، وان تحترم اختياري. وهنا ألْفت إنتباهك الى الحب الذي تحفظه لك الكونتيس الرقيقة، وأنت غير مبالٍ بها، يا مولاي. ارجوك ان لا تنسي ما تعانيه هي لأجلك، وانصفْ فؤادها الذي يهواك.

دون سيلفو : لا تلوميني، يا سيدتي، ولا تدفعيني الى ما لا طاقة لي على مجاراتك فيه. بكل صراحة، حاولت ان أميل عنكِ إليها. لكن هيهات أن أستطيع معاندة قلبي. وبما اني أخاطبك بصدر رحْب، لا اخفي عنك، يا سيدتي، أني رغم كل جهودي لم أتوصّل الى تحويل مودّتي. أنا أعرف، يا سيدتي أني أخون عهد أميرة فاضلة لا تستحقّ إلا التقدير والاحترام. ولكن ما حيلتي، وقلبي لا يطاوعني، وانا مضطر الى التخلّي عن شخص عزيز على قلبي، بُعادُه عني يجلب لي جميع مشاكل الدنيا.

دونا ألْفيرا : انت لا تعاني إلّا من معضلة لا تريد أن تدرك فحواها. لا بدّ لنا من ضبط عواطفنا والتغلّب على ضعفنا بتحكيم عقلنا، وإلّا كان مصيرنا الهلاك المحتّم.

المشهد الثالث

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودون سيلفو

دون كارْسيا : انا أعلم، يا سيدتي، أن مقابلتي تأتي في غير محلها، وأنها تشوّش أفكارك، وان حضوري الى هنا غير معقول ولا مقبول.

دونا ألْفيرا : أجل، مشاهدتك فاجأتني واذهلتني، لأني لم أكن لأترقّبها بتاتاً.

دون كارْسيا : نعم، زيارتي لم تكن منتظرة، يا سيدتي، لكن، مع ذلك يسرّني ان أعرف رأيك، وأن أقوم بالواجب الذي يليق بكِ.

دون سيلفو : انا فخور بمواجهة بطل شهم في شخصك الكريم، يا مولاي. ومَن لا يعترف بفضل فتوحاتك ويُعجَب بشجاعتك ومروءتك ؟

دون كارْسيا : غير أن عظماء الفاتحين الذين يشيد الملأ بانجازاتهم، لا يحبّذون كتْم الأسرار، ولا يحتاجون الى شهود لاثبات بطولتهم. لأنهم منذ حداثتهم تعوّدوا الشهامة والمجد بدافع العواطف النبيلة التي تطفح بها صدورهم، هم لا يتنازلون الى التنكّر وارتداء غير أزيائهم التقليدية. فلا تظنّ أنهم يتجنّبون صحبة من ليسوا من طينتهم ولا من هم دونهم في علوّ المقام.

دون سيلفو : لست أدري إن كان أحد يلومني على سلوكي. فبما أني قمت بهذه الزيارة سرّاً، وأنا أعرف أن مثل هذه المشاريع بحاجة الى الوضوح، لم أبحث عن العتمة ايها الامير، لأسير في ظلّها. وحين اقوم بأي عمل يخصّك، لن أعمد الى التذرّع بالمفاجأة التي لا تلائمك، بل أسعى الى تنبيهك قبل وقوعها. على كل حال، علينا أن نبقى في المسائل العادية، وأن نحوّل نقاشنا الى القضايا الأخرى، غير ناسين امام مَنْ نحن نتحدّث.

دونا ألْفيرا : انت مخطئ، ايها الأمير، فإن زيارته هي بمثابة ما يجعلك ...

دون كارْسيا : الإصرار على مشاجرته فكرة غير مجدية، يا سيدتي، وعليك أن تخفي نواياك في هذا الصدد، فذلك افضل، لا سيما عندما يريد هو أن يتكتّم في مجيئه الى هذا المكان. فالتحمّس للدفاع عن تصرّفاته لا يُقنع احداً بأن حضوره قد باغتك هكذا.

دونا ألْفيرا : مهما كانت ظنونك متطرّفة، هي لا تهمّني كثيراً الى حد أن أتنكّر لها.

دون كارْسيا : فكّري مليّاً بفخر الأبطال هذا، واشرحي أوضاع قلبك بدون تردّد. فإن زيادة الإهتمام به هي نوع من التستّر. لا تشجبي الآن ما سبق وأعلنت موافقتك عليه. بُتّي في أمره بكلمة وجيزة، وقاومي كل ضغط، وقولي انك تحسّسين عواطفه، وأن لمجيئه الى هنا بهجة مستحبّة.

دونا ألْفيرا : واذا شئتُ أن أحبّه، هل يسعك ان تمنعني ؟ هل لك على مشاعري أية حقوق ؟ واذا رغبت في تحقيق أحلامي هل لك عليّ اية سلطة لتحرمني من التمتع بحسناتها. إعلمْ أن الإمعان في الشموخ قد يخيّب آمالك. وإن نويتُ ان اكتم عنك شعوري، لن اصرّح لك بأني احبّ الكونت. لكن اعلمْ اني اجلّه وأقدر اخلاقه حق قدرها. لأن فضائله السامية تعجبني كثيراً وتليق بأميرة. واذا جرّدني مصيري من حرّيتي، هل أجرؤ على حجب مودّتي عنه ؟ لن أكون ضحيّة أهوائك واستهتارك. ها أنا أصارحك، وأكرّر لك الوعود، لأنك انت ترغب في ذلك، ولأني لا استطيع إخفاء أحاسيسي عنك. فهل هذا يرضيك، وقد كشفت لك مكنونات صدري، وهل يقنعك شرحي هذا المستفيض ؟ فلابدّد عنك ضباب الشك، لا بدّ لي فَسْحَة بضعة ايام. ومع ذلك اذا صمّمت على نيل رضاي، لا يبرحُ من بالك، ايها الكونت، ان وجودك بقربي ضروري. ومهما بلغت أهواؤك من التسامح، لا بدّ من معاقبة الطاغية رغم كل ما أُوتي من دهاء. والأوْلى أن تصمّ أذنَيْك عن ثورات غضبه. أرجوك ان تثق بكلامي وان تتصرف حسب ما أشير به عليك.

المشهد الرابع

دون كارسيا، ودون سيلفو.

دون كارْسيا : الدنيا تضحك لك. وروحك المرح يطغى على همومك في هذه الظروف. فابتهجْ كما يحلو لك، واهزأ بالفوضى المسيطرة على محيطي. وهكذا تتمتّع بالانتصار على خصمك. لكن اعلمْ أنك لم تبلغ الغاية التي تهفو اليها. لأن الغضب يستبد بي الآن لأسباب عديدة موجبة، واليأس يشلّ تفكيري. لكن كل ما يرتكبه المخدوع من حماقة يهون اذا ما أشادت ناكرة الجميل المعلومة، بحبك أمامي. وسأجد وسيلة فعّالة لأشفي غليلي من استبدادها ولأحول دون اقترانك بها.

دون سيلفو : هذا التحريم لا يضايقني. وسنرى ان الانتظار سيكون عقيماً. وكلّ منّا حسب مقدرته وظروفه سيعرف كيف يصون سعادته ويتخلّص من براثن شقائه. لكن، بما ان بين الاخصام لا بدّ لمن هو الاكثر شهامة من ان يلاقي الخيبة اذا انحدر في البذاءة الى أدنى مستوى، ولا يحتاج الى الحماس من ينفتح ذهنه على الخير وحسن النية. انقذني من ضيقي الخفي، وسهّل لي سبيل الانسحاب من هذا المأزق الحرج.

دون كارْسيا : لا، لا. لا تخفْ من مواجهة محنتك. فلن تدوس هنا ما فُرض عليك من نظام عادل. ومهما دفعني غيظك الى تمليقك لإرضائك، ايها الكونت، انا اعرف ما يجب عليّ أن أفعله. درب الحرّيّة مفتوح أمامك، فاخرج متى شئت معزّزاً بما تمتلكه من خصال حميدة. وليكن معلوماً لديك أن جرأتي وحدها تستطيع ان تضع حدّاً نهائياً لفتوحاتك.

دون سيلفو : عندما نخوض هذا الميدان الشامل، سيدافع ذراعنا القوي عن جميع مصالحنا، وينهي النقاش الذي طال أمده بيننا.

الفصل الرابع
المشهد الاول

دونا الفيرا، ودون الفارو.

دونا ألْفيرا : عُدْ الى من أرسلك، يا دون الفارو، واقطع الأمل من إقناعي بالتغاضي عن مرارة الاهانة. فإن جرح قلبي لن يلتئم، والعلاج الذي يُقدَّم لي لا يزيدني إلّا الماً. فهل تظنّ اني اودّ سماع ريائه ؟ كلّا، ثم كلّا، فقد أثار أقصى غضبي. أمّا ندامته التي حملتك على المجيء الى هنا، فلن تفيدك. ولن تستدّر صفحي وعطفي.

دون ألْفارو : هذا حقّاً يستدعي الشفقة، يا سيدتي. لم يتوصّل القلب يوماً، مهما كانت توبته صادقة، الى التكفير عن إهانة مقصودة. واذا كان عذابه قد حنّن فؤادكِ وسامحتِه، فأنا أعلم بأن الامير بلغ من العمر مرحلة تحمل اندفاعه على الاستسلام. واثناء فورة عواطفه لا تترك أشواقه الحارّة مجالاً للتفكير والتروّي. أمّا دون لوبيز، وقد إستمدّ حذره من مصدر سيّئ النيّة، فقد ثبّت غلطة سيّده، ولم يتورّع عن فضح سرّ الكونت، كما بلغك أمره. فركن الأمير الى نصيحة ضلّلت قلبه بناءً على تحذير خاطئ احدث هذه الضجة الصاخبة. لكنه سرعان ما عاد عن غلطه، واقتنع ببراءتكِ. وها هي مطاردته لدون لوبيز دليل دافع على ندامته.

دونا ألْفيرا : لم يَحُن الوقت لتصديق براءتي، لأنه لا يملك البرهان القاطع

على ذلك. ألَا قُلْ له أنّ عليه أن يدقّق ويمحّص المسألة، وان لا يستعجل في اتّخاذ قراره خوفاً من الشطط في حكمه المتسرّع.

دون ألْفارو : يا سيدتي، هو يعرف جيداً ...

دونا ألْفيرا : أرجوك، يا دون الفارو، ان لا تتوسّع كثيراً في هذا الموضوع الوارد في غير محله. لأنه يوقظ أحزاني ويطعن فؤادي، أجل، هناك مصاب أليم يباغتني. فقد أزعجني كثيراً موت الكونتيس الكريمة، وليس لي من أسىً سواه ينغّص اليوم عيشي.

دون ألْفارو : لا صحّة لهذا النبأ، يا سيدتي. وعَوْدتي الى الامير غير ممكنة.

دونا ألْفيرا : نعم، كانت هذه الكارثة أليمة، ولم يستحقّها صاحبنا.

المشهد الثاني

دونا الفيرا، واليز

أليز : كنت انتظر خروجه، يا سيدتي، لأقول لك إن من يودّ حقّاً ان تتنفّسي الصعداء، يشقّ عليه حزنك في هذه الآونة. أمّا مصير دونا أنِْيس فلا يلبث ان يتوضّح. وقد جاء مجهول للاطّلاع على هذا الموضوع الحميم، وطلب لذلك مقابلتك كأنك من ذويه.

دونا ألْفيرا : لا بدّ من أن أراه، يا أليز. فليأتِ عاجلاً.

أليز : لكنه لا يريد أن يبصره أحد سواكِ. ويلتمس هذا المرسَل ان يقابلك، يا سيدتي، بدون أن يكون أحد شاهداً علَى وجوده هنا.

دونا ألْفيرا : اذاً سنكون وحدنا. وسأصدر اوامري بهذا المعنى. وستهتمّين انت بجلبه الى هذا المكان، حيث سأنتظره بفارغ الصبر، بدون ان أدري إن كان هذا الإنسان يأتيني بالخير أو بالشرّ.

المشهد الثالث

دون بيدْرو، وأليز.

أليز : اين كنت ؟
دون بيدْرو : إن كنت تبحثين عني، يا سيدتي، فها أنذا.
أليز : اين الآن سيّدك ؟
دون بيدْرو : ليس بعيداً عن هنا. هل تريدين أن آتي به ؟
أليز : أجل، قُلْ له أن يجيء، لأني انتظر قدومه بفارغ الصبر. وليطمئنّ أنْ لا أحد سيراه. لست أدري بأي سرّ سيبوح لي، حتى يتّخذ كل هذه الإحتياطات ... ها هوذا قد وصل.

المشهد الرابع

دونا أنييس، وأليز.

أليز : نحن بانتظارك. يا الهي، لقد عملنا ... لكن ماذا أرى ؟ ها، ها، يا سيدتي، عيناي ...
دونا أنْييس (**مرتدية ثياب فارس**) : لا تكشفي أمري، يا اليز. بل دعيني أتلمّس مصيري الحزين تحت ستار موت مصطَنَع قد ينقذني من أيدي مضطهديّ الشرسين. فأنا بهذا الزيّ استطيع ان أفهم مرام أهلي. وبواسطته قد تحاشيت هذا الزفاف الرهيب الذي كنت بسببه ذقت الأمرَّيْن لو تمّ. لذا يتحتّم عليّ أن أخفي عن الجميع سرّ مصيري الغامض، كي اتجنّب مغبّة الظلم الذي تعرّضت له اثناء هربي.
أليز : استغرابي ما جرى عَلَناً قد فضح نواياكَ. فادخل ايها الفارس الى هنا، وادفنْ تنهداتك ومشاعرك الحافلة بالبهجة التي أدخلتها بتهيّب الى قلب

الأميرة. ستجدها جالسة وحدها، وقد أصرّت هي بنفسها على دخولك بحرّيّة الى هذا المكان بدون ان يبصرك أحد. قُلْ لي أوليس القادم الينا دون الفارو بنفسه ؟

المشهد الخامس

دون الفارو واليز

دون ألفارو : أرسلني الأمير لأبلغك انه يُقدّر مسعاكِ. لكن، أيقني، يا اليز الحلوة، انّ عليك أن لا تأملي بأية مساعدة. فإذا لم تبادليه حديثاً وجيزاً سيغمر الحزن نفسه ...

المشهد السادس

دون كارسيا، ودون الفارو، واليز.

دون كارْسيا : إرثي لحالي، يا اليز، فقد انهالت عليّ المصائب من كل صوب، واشفقي على تعاستي، وعلى ما حلّ بي من كوارث جسيمة.
أليز : بعينَيْن غير اللتَيْن تنظر بهما الى الاميرة، كنتَ، يا مولاي، شاهدت ما فعله بك الأسى الذي يعصر قلبك. غير أن السماء سمحت لكلٍّ منّا أن يرى الأمور من زاوية مختلفة. وبما أنها تلومك بدافع ما تخصّها به من غيرتك، أظهِرْ لها بعض المسايرة، واجتهد أن تخفي عن ناظريها كل ما من شأنه ان يجرح عواطفها. ان للعاشق حسب مزاجه طريقةً خاصّة تلائمه، يحاول ان يطبّقها على مزاج حبيبته. ولعله يعيد الكرّة مئة مرّة حتى ينصهر قلباهما في

بوتقة العواطف المتبادلة فينسجما معاً ويتّفقا على مودة مشتركة. وهذا هو فن التنسيق بين الحبيبَيْن إذْ اننا كبشر نحبّذ دائماً ما يشبهنا بالميول والافكار.

دون كارْسيا : أعرف ذلك جيداً. ويؤسفني أن أجد مصيرنا متناقضاً. فرغم كل جهودي، لا بد لي من ان أنصب فخاً لاصطياد قلبٍ يشقّ علي أن أتجاهله. المهمّ ليس ان تندّد بي ناكرةُ الجميل تحت انظار مزاحمي فينطلق لسانها بالتصريحات المشؤومة، وتغمره بالمزيد من الحنوّ الذي ينقلب عليّ عذاباً مبرّحاً. وبما أن إغراءاتها المتوالية قد أيقظت اشواقي فقد عزّ عليّ أن أشاكسها وأن أعمد الى صدّها. لذا اعتبرت غير لائق بي أن لا أتجاوب وما تسلّطه الحسناء عليّ من سحر جمالها ودلالها. فبادرت الى موافاتها للاعتذار منها متغافلاً عمّا سبق وأظهرته لي من جفاء وبعاد.

أليز : ارجوك ان تتيح لها الفرصة لتغيير موقفها، ولا تسارع، يا مولاي، الى مقابلتها الآن خشية احراجها.

دون كارْسيا : إن كنتِ حقاً تودّينني، يا اليز، حرّضيها على مقابلتي. فهذا أقلّ ما ألتمسه منك أوّلاً. لأني مصمّم على ان لا أغادر هذا المكان قبل ان يتأكّد لي زوال تمنّعها المتشامخ.

أليز : أتوسّل اليك أن تؤجّل تنفيذ رغبتك هذه حالاً.

دون كارْسيا : لا، لا تعارضيني، ولا تجدي لها عذراً يعزّز تشامخها.

أليز : لا بدّ، يا مولاي، من إيجاد وسيلة لاستدراجها الى قبول مواجهتك. فأرجوك ان تنتظر قليلاً، ريثما أكلّمها في هذا الموضوع.

دون كارْسيا : قولي لها إني أقْصَيْتُ من محيطي ذاك الذي ازعجني حديثه. وإنّ دون لوبيز لن ...

المشهد السابع

دون كارسيا، ودون الفارو

دون كارْسيا : يا الهي. ماذا أرى ؟ هل يتحتّم علي أن أصدّق ما يقع في هذه اللحظة تحت نظري ؟ لا بدّ من أن يكون ذلك دليلاً صادقاً. وهذا ما يزيد الطين بلّة. بل يُخيَّل اليّ أني أتلقّى ضربة قاضية. كنت قبلاً أكافح الظنون التي تقضّ مضجعي. لكن الوضع أضحى اليوم يهدّد قلبي بالانسحاق والهلاك.

دون ألْفارو : ماذا أبصرتَ، يا مولاي، حتى انهارت معنوياتك ؟

دون كارْسيا : شاهدت ما أكاد لا أصدّقه. ولو حدث انقلاب هائل في طبيعة الكون لما أدهشني اكثر من هذا المنظر. لقد قُضيَ الامر ... هذا مصيري ... ولا يسعني أن أنطق بكلمة واحدة.

دون ألْفارو : ارجوك، يا مولاي، ان تتذكّر ...

دون كارْسيا : رأيت ... تبّاً للانتقام البغيض. يا الهي.

دون ألْفارو : ما هذه الضربة المباغتة ؟ ...

دون كارْسيا : انتهت حياتي، يا دون الفارو، وباتت المسألة حقيقةً ملموسة.

دون ألْفارو : لكن يا مولاي، من يستطيع ؟ ...

دون كارْسيا : كل الدنيا انهالت على رأسي. أنا ضحية ... أنا ضحية خيانة فظيعة. قتلني قدري. هناك رجل ... هل أستطيع قبل أن ألْفظ انفاسي الأخيرة، أن أقول لك ؟ ... لقد رأيت رجلاً يعانق الخائنة ألفيرا.

دون ألْفارو : يا مولاي، أؤكّد لك ان الاميرة الفاضلة أطهر من أن ...

دون كارْسيا : لا، لا، لا تحاول نفي ما قد شاهدته أنا بأم العين. لا سبيل مطلقاً الى تبرير ما أقدمتْ عليه الخدّاعة، يا دون الفارو، وقد أبصرتُ بهاتيْن العينَيْن وضعها المشين.

دون ألْفارو : كم تخدعنا حواسّنا، يا مولاي، فنعتقد ان الباطل حقّ، وأنّ الوهم واقع ملموس. هكذا هو حال الاميرة التقية التي لا يسعها أن ...

دون كارْسيا : ارجوك ان تدعني وشأني، يا دون الفارو. لأن إسداء الفصح

يصدم في بعض الاحيان. وأنا لا أسترشد الّا عواطفي وإحساسي.
دون ألْفارو : يجمل بنا ان لا نصغي الى هذه الدوافع النزقة.
دون كارْسيا : كم اصابتني هذه الحادثة في صميم فؤادي. بقي عليّ ان أعرف من هو هذا الرجل الخسيس، لأقتصّ منه بيدي ... ها هي قد أقبلت. هل أتمكّن من كظم غيظي أثناء حضورها ؟

المشهد الثامن

دونا الفيرا، ودون كارسيا، ودون الفارو

دونا ألْفيرا : ماذا تريد ؟ واي أمل ساقك الى هنا ؟ بعدما صدر عنك من غريب التصرف لإرضاء هواجسك المهووسة ؟ ألّا تزال لديك الجرأة للمثول أمامي ؟ وأية بدعة جديدة تريد ان تعرضها عليّ ؟
دون كارْسيا : ما من فظائع تضاهي دناءتك التي ليس لها من مثيل. فالأقدار، والابالسة، والملائكة معاً لم تُقْدِم على عمل خسيس ولئيم وبذيء اكثر مما بدر منكِ.
دونا ألْفيرا : حقاً كنت اترقب اعتذارك عن إهانتي سابقاً. لكن ما اراه واسمعه منك الآن هو لهجة أخرى أغرب من كل ما صدر عنك في الماضي.
دون كارْسيا : نعم، نعم. هذه مشكلة جديدة. وأنت لا تنتظرين مني ان أكشف لك من هو الجاني، وأُلْقيه مكبلاً بالقيود عند قدمَيْك. أوَلَيست مصادفة مشؤومة أن تتراءَيْ لي من خلال باب مفتوح قليلاً، وتدعيني أشاهد عارك الذي يعني في الوقت ذاته هلاكي ؟ أوَيكون هو العاشق السعيد الذي عاد أدراجه الى أحضانك، أم هذا منافس آخر أجهل اسمه ؟ يا إلهي، زوّدني بالقوّة اللازمة كي استطيع ان أتحمّل آلامي المبرّحة. إحمرّي الآن خجلاً، يا فاسقة، فهذا أمر غير مستغرب، بعد أن سقط القناع عن وجه خيانتك السافرة. هذا بالذات هو باعث لوعة حبي المنبثقة من الشكوك العديدة البشعة، ومصدر

الشقاء الذي ارتسم في عينيّ. لكن، رغم كل عنايتك لستّر عهرك، أنبأني قدري بما كنتُ أخشاه. فلا تتوقعي ان اتغاضى وان لا انتقم لكرامتي، أو أتلقّى جزائي فتلتصق بي مذلّتك وحقارتك. أنا أدرى الناس بأن لا أحد يقوى على دخول قلبك عنوةً. لذلك لا أجد مجالاً لعدم الشكّ، لوْ لم ينطق بكل صراحة فمك الذي حكم هكذا على فؤادي بالإعدام، ولما كان عتبي إلّا على نصيبي المرير. من جهة أخرى، أعتبر ان تصرفك هذا خيانة سافلة تستحقّ أقسى العقاب. لا، لا، لا تأملي بمصالحتي بعد هذا الغدر المكشوف. فأنا لم أعد املك وعيي، إذ انهالت عليّ الخيانات من كل الجهات، وزجّني حظي العاثر في وضع زريّ ذليل. لا بد لحبّي من الانتقام، ومن صبّ جام غضبه على رأس من سبّب لي هذا اليأس القاتل.

دونا ألْفيرا : كفى، فقد استمعت طويلاً الى مهاترتك، وجاء دورك في الإصغاء الى ما أودّ أن ابلغك إياه بصراحة متناهية.

دون كارْسيا : بأية خطابة بليغة، وبأيّ أسلوب منمّق ؟

دونا ألْفيرا : اذا كان لديك ما تقوله لي ايضاً، يمكنك ان تضيفه الى ما تدفّق من فمك وسردته لي بمرارة، فأنا كلّي آذان صاغية. وإلّا، دعني أمتّعك أنا برهةً بالاستماع الى طلاوة حديثي المشوِّق.

دون كارْسيا : هيا يا شري، يا سفيهة، فأنا أُنصت اليك. يا إلهي ألْهمني نعمة الصبر.

دونا ألْفيرا : ها أنا أكظم غيظي مرة أخرى، وأودّ بدون انفعال أن أجيب على كلامك المشبع بسموم الحدّة والعنف.

دون كارْسيا : انتِ ترَيْن جيداً ...

دونا ألْفيرا : لقد سمعت ما قلته لي من بذاءة، فبقدر إمكانك أرجوك أن تردّ لي جميلي. أنا راضية بنصيبي، لأني لا أجد أفضل منه على الأرض. أرى الى جانبي عاشقاً أعمى، لا يتردّد ولا يتورّع عن إضطهادي. وفي جميع تعابيره الغراميّة الفجّة، لا يحفظ لي أية كرامة أو أي اعتبار، فضلاً عن مظاهره الكاذبة باستمرار. نعم، هذا ما ألْمسه لمس اليد. لا تقاطعني. أكرّر لك أن حظي تعيس الى أقصى حدّ. فإنّ قلبك الذي يبوح لي بحبه هو في الواقع من ألدّ أعدائي.

مع ذلك، أنا أتغاضى عن اساءتك، وأسكت على مضض عن إهانـاتك وتهديداتك المتكرّرة. فأرجوك ان تكذّب واقعك، وأن تصلح أحوالك.

دون كارْسيا : وهل هناك من مجال لذلك ؟

دونا ألْفيرا : لا بدّ من الانتباه قليلاً لتعرف قراري. عندئذ يتحتّم على كلّ منّا أن يسارع الى مصيره. أنت الآن على شفير الهاوية. وقلبك الذي سيناقشك الحساب سيدهورك أو ينتشلك. فإذا أعدت إليّ، أيها الأمير، رغم المباغتة، ما يجب عليك أن تردّه، وأن تسألني برهاناً آخر غير الذي قدّمه لك لتتخلّص من الاضطراب الذي تغوص في لججه، ولم تقتنع بعد ببراءتي، ولم تتراجع عن إتهاماتك بحقّي، عليك أن تؤمن بدون جدل، بما يبوح لك به فؤادي من شعور مكتوم. وإلّا يكون جحودك جرماً إضافيّاً لا يُغتفَر وخيانة نكراء ما بعدها خيانة. ولن يبقى أمامك من باب للأمل ببلوغ امنياتك. بالإختصار، إعلمْ جيداً أني أُفضّل الموت ألْف مرة كما سبق وأكّدت لك، على القبول بأن أُزفّ اليك. فعليك اذاً أن تختار أحد هذين الأمْرَيْن، وثقْ بأن لا ثالث لهما.

دون كارْسيا : ألم يعد بالإمكان الإهتداء الى حلّ مناسب ؟ أوَليس لديكِ اقتراح أجدى من الذي تفضّلتِ به ؟ في الحقيقة اراني ضحية قلبي المنحوس الذي جرّحته بسهام لحظكِ وجعلته اسير هواكِ، وحكمتِ عليه بالصدّ والجفاء، وانت تدّعين البراءة في هذه الجناية الفظيعة.

دونا ألْفيرا : إقتنعْ بأن عليكَ أن لا تطمع بعد الآن بحبّي، كما أنا لا ارتضي مودّتك.

دون كارْسيا : انا مستعدّ لتقبّل جميع التضحيات.

دونا ألْفيرا : ستندم، على كل حال، لأنك عاشق مستبدّ فاشل.

دون كارْسيا : لا، لا. هذا حديثٌ منحرف هُراء، وانا بدوري أُحذّرك وانبئك بأن غيري من سيندم. والخائن أيّاً كان لن ينجو من غضبي وانتقامي.

دونا ألْفيرا : هذا كثير. وفؤادي المنسحق لن يظلّ على ما هو من الطيبة والرقّة. لندعْ العَقوق يسبح في بحر أهوائه، وليغرق في أمواج غروره وحقارته. (تنادي اليز) : يا اليز. (ثم تواصل مخاطبة دون كارسيا) : أرجوك أن لا تنسى ان

إذلالي هكذا لا يطاق. (تدخل اليز فتقول لها) : من فضلكِ، أخرجي هذا الشخص، وأبلغيه أن ينتظرني قليلاً.

دون كارْسيا : وهل يمكنني أن أصبر ؟

دونا ألْفيرا : ترقّب وستلاقي ما يرضيك.

أليز : هذا أسلوب جديد يلجأ اليه الغيور الحسود.

دونا ألْفيرا : إحذرْ غضبي، ولا تثابر على خطّتك، بل تذكّر كم كلّفْتك غالياً ظنونك المهووسة، هذه الظنون التي ظلمتْني، لانها في غير محلّها. أُنظرْ جيداً الى هذا المحيا المُشرق، وقُلْ لي اذا كانت دونا أنْييس لا تبدو لعينيكَ من خلاله وضّاءة الملامح.

المشهد التاسع

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودونا أنِييس ودون الفارو، وأليز

دون كارْسيا : يا الهي.

دونا ألْفيرا : اذا كان إرتباكك يضايقك، هناك أشخاص تستطيع أن تستشيرهم، وسيزيلون حتماً عن صدرك كل الشكوك. إن موتها حيلة بارعة ابتكرتْها لتهرب مّمن يضطهدها، وكانت بهذه الفكرة تخفي بغيتها، لكي تتمتّع اكثر بمفعول هذا التظاهر بالموت. سامحيني، يا سيدتي، اذا كان الواجب يتطلّب مني ان أقبل بذلك لأفضح اسراركِ والهيكل اثناء انتظارك. لكني حين تعرّضتُ لمغامراتك، فقدتُ حرّيتي في جميع تصرّفاتي، واصطدمت شهامتي بظنونك، فعذّبتني بطريقة لا تُحتمل. واذا بك أيها الحاسد الوقح تفاجئني بمعانقات مُفعَمَة غيرةً. أجل، هذا ما أثار غيظي وجعلني أخجل من سلوكك المشين. يمكنك ان تبتهج، ايها الطاغية الظالم، بهذه الايضاحات التي قصدت أن أذكرها لك عمداً. واعلمْ اني لن أنسى هذه الطعنة القاتلة التي سدّدتها الى فؤادي. واذا نقضت انا يوماً عهودي فلْتنقضّ عليّ صواعق السماء وتسحقني.

(تخاطب دونا أنييس) هيا، يا سيدتي، هيّا نغادر هذا المكان الذي تسكنه عفاريت الجنّ، ولنهربْ عاجلاً من هذا الجوّ المحموم لنتحاشى هياجه الشرس، ولنلْتمس الخلاص أخيراً من قبضته الفولاذية الخانقة.

دونا أنييس : يا الهي. ما أبغض نواياك العنيفة التي حوّلت فضائلك الى رذائل فَظيعة.

دون كارْسيا : ما هذا الضوء الكئيب الذي يكشف غلطتي ويُضفي على حواسّي بشاعة كريهة، ولا يترك في قرارة نفسي سوى الندم القاتل. آه، يا دون الفارو، الآن أيقنت انك على صواب. لكن جحيم قلبي يغصّ بالأفاعي التي سامتني مرّ العذاب، وزرعت الحقد في أعماق صدري. ما الفائدة ان أحببتُ بشوق عارم، وإن كانت جميع نوايا حبيبي تنفث سموم الشقاء والذلّ في كل أرجاء كياني. عليّ ان انتقم قبل تنفيذ حكمه فيّ بالاعدام. قُلْ لي بماذا تنصحني اليوم بعد أن فقدت كل أهداف وجودي. وان كنت أضعتُ الامل بتحقيق أُمنياتي، فإن سأمي العيش أصبح لديّ أشدّ مرارة من العلقم.

دون ألْفارو : يا مولاي ...

دون كارْسيا : لا، يا دون الفارو. موتي بات ضرورة ملحّة. اذ لم يبقَ من اسباب اللهو. ودواعي الاهتمام ما يمكنه ان يُشغلني. فأرجوك أن تؤدّي عني خدمة جليلة لهذه الأميرة الفاضلة. وبذلك اكون كمن يبحث عن مغادرة الدنيا بشهامة وامتنان. لأني اذا مُتّ في سبيل هواها، ستأسف هي وتحزن على زوالي، وتكون بذلك قد ثأرت لنفسها، « لأنها لإرضاء طموحها، قد أنزلت بي أقسى العذاب ». لا بدّ اذاً من ان أقتل بطعنة نجلاء من يدي، هذا الحقير المدعو موريكا الذي نفرتُ منه وكرهتُ الوقاية التي أبداها في اغتصابه عرش قشتالة بضجيج جهنّمي. وهكذا اروي غليلي بتذوّقي حلاوة القضاء على خصمي وتبديد آماله وأمجاده هباءً.

دون ألْفارو : هذه خدمة، يا مولاي، بعيدة المدى خطيرة العاقبة قادرة على محو جميع إهاناتك. لكنها مغامرة ...

دون كارْسيا : هيا، هيا. فالواجب يدعونا لتنفيذ هذا المشروع الرهيب الذي يلائم ما يخامرني من شك ويأس.

الفصل الخامس
المشهد الأول

دون الفارو، وأليز

دون ألْفارو : لم يباغتْني مطلقاً بهذه المفاجأة، إذ قرّر أن يقضي على حياة الطاغية موريكا، ومن شدّة غيظه قَلَب الاوضاع رأساً على عقب. ولِكَي يبرر اعتداءه هذا باغتصاب العرش، حاول أن يطلب الصفح، مدّعياً لتخفيف جرمه أن له شريكاً في هذه الخيانة النكراء. لكنه ما لبث أن علم ان هذا الشريك قد فاز بما كان هو ذاته يحلم بالسيطرة عليه. وها هو اليوم دون ألْفونْسو يظهر وكأنه هو المنتصر، وينال غار الظفر والمجد. ثم جاء الى هنا ليصطحب شقيقته الأميرة. وقد أُذيع أن ذلك تمّ مكافأةً له على إنجازه، لأنه استرجع ايضاً بهذه الخدمة عرشه الذي اغتُصب منه.

أليز : نعم، بلغ مسمع دونا الفيرا هذا الخبر السارّ الذي أكّده لنا دون لويس العجوز، واعلمنا كذلك ان مقاطعة ليون تترقب هي أيضاً عودة دون ألْفونْسو السعيدة المظفّرة. وهي من جهتها ابتهجت بتحقيق أمنيّتها، إذ قدّم لها شقيقها، الزوج الذي طالما حلمت به. وهذا القليل الذي سمعته يُنبئني بأن دون سيلفو هو هذا الزوج المرتَقَب.

دون ألْفارو : هذه ضربة قاضية تسحق قلب الأمير ...

أليز : هي قاسية بدون شك، وأنا أرثي لحاله على اثر هذه الخيبة المريرة. إذ

اراه لا يزال يميل الى الأميرة، ويعتبرها كأعزّ انسان لديه في الدنيا. وهي من جهتها مسرورة بقدوم أخيها ووصول الرسالة ايضاً. لكن ...

المشهد الثاني

دونا الفيرا، دون الفارو، وأليز، ودونا أثيبيس.

دونا ألْفيرا : أرجوك، يا دون الفارو، أن تستدعي الأمير الى هنا، وأن تستمع الى الكلام الذي سأوجهه اليه حول هذا الحدث المباغت، كي تكفّ عن إتهامي بالتبدّل. وهكذا أُفرغُ جعبتي ممّا أضمره له من البغض بسبب جرمه غير المنتظر، وإن كان قد تغلّب عليه وأخمد سعيره، فضلاً عن الكره الشديد الذي اشعر به نحوه. وهو لا يزال شخصياً في وضع يُرثى له كما كنت اتوقّعه، لأنه اصرّ على امتلاك قلبي بالعنف عنوةً. لكن، قبل أن يعجّل القدر ويختطف روحه وشيكاً، كنت ألْمس الخشونة والصلف في هيامه. ومهما حاول بشتى الوسائل ان يكتسب ودّي، يظل سعيه في نظري إهانة لا تغتفر. وها هي الظروف تثأر لكرامتي المهانة وتنقذني من نواياه الخبيثة. أجل، رقّ قلبي الحسّاس لدى تلقّيه الضربة المدوِّخة، مع أنها اعتقتني من أُسْر غرامه. وها أنا أبحث عن السلوان والتعزية حيال الكارثة التي حلّت بهذا العاشق البائس، وبتّ اعتبر أنّ تعلّقه بي، وإن كان فاشلاً، يستحقّ اليوم مني الاشفاق على صاحبه المنكوب.
دونا أثيبيس : من المؤسف، يا سيدتي، أن تعودي الى معالجة هذا الموضوع، والى تذكّر العواطف العاصفة التي كانت تتصادم في صدره وترتد عليك. وما فعله في سبيلك ... ها هو قد شحب لونه واصطبغ وجهه بإصفرار الموت الذي قصف زهرة حياته وخلّف من بَعْده الألم والحسرة.

المشهد الثالث

دون كارسيا، ودونا الفيرا، ودونا أنييس، وأليز.

دون كارْسيا : لست أدري، يا سيدتي، بأي وجه أقابلك، وقد فرضتُ عليك حضوري الذي لا تستسيغينه ؟

دونا ألْفيرا : لست في وارد الحديث عن نفوري، ايها الأمير. لأن ظروفك قد غيّرت نظرتي اليك. وبالنسبة الى الأحوال المؤلمة التي تعترض سبيلك، فقد همد غضبي وخيّم السلام على نفسي. أجل، رغم ما تلقّاه حبك من محن قاسية أثارت عليك الأحقاد، ورغم ما أيقظتّه من ظنون حول شخصي، وما الصقته بي من حقارات أدمت فؤادي، أعترف مع ذلك بأني أرثي لحالك الى حدّ جعلني انظر الى فوزي حاليّاً ببعض الأسف والألم، وأكره الحسنات التي أمّنتْها لي هذه الخدمات الجليلة. لأن القصد من وراء كل ذلك كان جرّي الى التضحية بحبّي. وكم أودّد اليوم أن أعوّض عن تلك الأوقات التي دفعتني الى قَسَم اليمين وأنا أسعى الى نقض عهودي. لكنك تعلم علْم اليقين أن قدَرَنا يكمن أحياناً في صيانة المصلحة العامة التي تتشابك ومصالحنا الشخصية. وإذا بمشيئة السماء ترأف بي وتتصرّف بتوجيه مصيري بغية إعادة اخي الى عرشه. فعليك، أيها الأمير، أن تطاوع قساوة القدر مثلي، في إرجاع الحقوق الى أصحابها حتى بالعنف اذا اقتضى الأمر كما هو حالنا، أيها الأمير الكريم. فإن أسعدتْكَ الاحوال وارجعتْ اليكَ سلطتكَ وكظم غيظكَ وانت في أحلك ساعات الشدائد. لأن مسايرة الأقدار هي بحدّ ذاتها عظمة قوامها شهامة الشجعان. فلا تقاوم هذه المعاكسات المذهلة، وافتح اسوار استْورْك لأخي الذي انتظرته أنا طويلاً، ودعْني أردّ له الحقوق التي يلتمسها مني، وقد صمّم قلبي على إرجاعها اليه. وانسياقي هذا المؤلم الذي يفرض ذاته على أمنياتي ربما لن يبلغ الحدّ الذي يحلم به طموحكَ غير المحدود.

دون كارْسيا : هذا منكِ، يا سيدتي، سخاء نادر يرمي الى تخفيف المحنة التي انوء تحت وقرها. اذ بإمكانك ان تسهّلي انقضاض الصواعق على رأسي، وأنا

في وضعي الحاضر لا يسعني أن أوجّه اليك كلمة إعتذار، لأني أستحق ما هو أقسى من هذا العقاب العادل. ثقي بأني أعلم جيداً بأن لا حقّ لي بالتذمّر ممّا أعانيه من الشقاء بسببك. فمن أين أبدأ بملامة نفسي على ما تجرّأتُ واقدمتُ عليه ؟ وها أنا التعيس أَلْمس الآن فظاعة جرمي اذْ تسلّطتُ زمناً على عواطفك. وحين حاولت أن أؤدّي لأسرتك خدمة كلّفتْني تضحيةً جسيمة، قادتني الظروف الى فرصة فريدة بالقضاء على منافس عنيد. بعد ذلك لم يبق لي، يا سيدتي، أيّ مطلب. لكني أراني الآن عاجزاً عن معاندة قدري، وقريباً سيأتي دون أَلْفونْسو الى هنا وقد طلّت بشائره من مقاطعة ليون كأنه يطير الينا على جناح السرعة كي يقبض ثمن الاطاحة بالطاغية المغتصب. لا تَخشيْ أبداً من أن تقوى أيّة مقاومة على الوقوف في وجه عنفواني الذي أعتزّ به. فليس هناك من مجهود بشري لا يتفانى في المحافظة على حقوقك، وأنا شخصياً أتحدّى كل ما يمكن أن يهدّدك من ضيق. واني على اتم الاستعداد لتجشّم جميع المخاطر، اذا انتِ باركتِ طبعاً فيض ما أبذله لأجلك من مشقّات، يا سيدتي، بدون أن أُسيء الى عواطفك. فأنا أترك لك ملء الحرية في فتح منافذ أسْوار أَسْتورْك امام العاهل السعيد شقيقك، وأتحمّل مغبّة جسارتي وإقدامي على هذه المغامرة.

المشهد الرابع

دونا الفير، ودونا أنبيس، واليز.

دونا أَلْفيرا : لا تظنّي، يا سيدتي، أن اليأس الذي يعرّضنا للمتاعب سيتوصّل الى تهدئة خواطري. فإن مصلحتك هي أغلى من كل ما يجلب لي الراحة والهناء. لأن دوام المودّة هي أفضل عندي من انتصار الحب على الظروف المعاكسة.

دونا أَلْبيس : هذا الحدث هو في نظرك، يا سيدتي، من الامور التي تعرّض

مصيري الى مضايقات طائشة. وربما لجأتِ السماء الى استخدام وساطتك المجدية. واذا تنهّدتُ انا حيال هذا التبديل، فلأني أشجب تحقيق رغباتي إن كانت نذير شؤم وتفضي الى القضاء على الصداقة السائدة بيننا. انا أخاف أن لا أكون مستحقّة ما تحيطينني به من عطفك واهتمامك، وأخشى أن تسيئي الظن بمقدرتي على صيانة حبك ومصلحتك.

دونا ألْفيرا : الأحْرى أن تنْدّدي بسكوتك الطويل الذي ساعد على إحراج قلبَيْنا منعاً. لأن سرّنا هذا الذي يشمل وضعَيْنا في ظل المشاكل والقلاقل والمطامع الطائشة أحياناً، يمهّد السبيل لإزالة كل تقدير حيال مواقفنا السليمة. فهل يأتي قريباً موعد قدوم من نستبعد حضوره ؟ ...

دونا أنْييس : أُذْكُري الذئب وهيئي القضيب، يا سيدتي. ها هوذا يطلّ علينا.

دونا ألْفيرا : ظلّي هنا، اثناء إلتقاء عينيّ الحائرتَيْن بنظراته الجشعة، ولا تخرجي، يا سيدتي، لكَيْ تكوني شاهدة على ما يحزّ في نفسي، وما سأنطق به من عبارات قاسية.

دونا أنْييس : انا موافقة، يا سيدتي، على البقاء، مع أن الأَوْلى بي في وضعي الحاضر أن أتحاشى سماع هذا الحديث الشائك.

دونا ألْفيرا : نجاحي، اذا أعانتني السماء وجادت عليّ بسلامة التفكير والتعبير، لن يُحرجك.

المشهد الخامس

دون سيلفو، ودونا الفيرا، ودونا أنْييس.

دونا ألْفيرا : قبل ان تتكلّم، أسألك بإلحاح أن تتنازل، يا مولاي، وتستمع الى أقوالي لحظةً. لقد بلغت آذاننا شهرة ساعدك الجبّار، وانا معجبة نظير الجميع بانتصاراتك الباهرة التي في فترة قصيرة دعمت حسن حظّنا. فقدّرتُ بالتالي أفضالك الشاملة حق قدرها. لأن انجازاتكِ الخالدة قد أعادت اخي الى عرش

ابيه. وهو يعترف بجميلك وبكرم اخلاقك. فلا تدعْ، يا مولاي، هذا الصنيع المجيد يُحمِّل عنقي نيراً ثقيلاً يفوق طاقتي. أنت تعرف مبلغ المودّة التي أحفظها لشخصك العزيز. لذا أرجوك أن تنظر بعين التفهّم الى امتناعي عن الاستفادة. من هذا المعروف الجليل، وأن تعفيني من التعرّض الى ما سيمارسه عليّ أخي من الإلحاح تبعاً لتربّعه على العرش. فإن مقاطعة ليون تستحقّ ثمناً أغلى، هو في هذه المناسبة أن تمنحني قلباً لم يَمِلْ حتى الآن الى أي مخلوق سواي، ملتمسةً من سموّ فضائلك ان تتكرّم عليّ بهذه الهدية التي اغمر كياني بالسعادة اكثر ممّا لو حصلتُ عليها بالإكراه. وطلبي هذه المنّة السخية، من قبل محبٍّ كريم لا تعني أنّ قلبي تأرجح الى الآن محتاراً في التفضيل بينك وبين سواك من العرسان. كلّا، يا مولاي، أما مصمّمة على ان اكون لك، ولن يكون في الدنيا من سلطة عليّ سوى شخصك الغالي الذي سألوذ دوماً بعطفه وحماه ...

دون سيلفو : انا واثق بجدّية وعودك الحاضرة، يا سيدتي، مع أني في الماضي قاسيت طويلاً من تردّدك، وأودّ ان أختصر موقفي بكلمتَيْن : لو كان حذرك الخاطئ قد حملك نوعاً ما في السابق، فاليوم سَرَت الضجة في كل مكان بأن موت الطاغية منحني الفخر والمجد. لكن الشعب وحده، حسب خبرتنا الواسعة، يجعل دون لويس يمارس حقّه ويحرز البطولة والنصر، وقد حامت الإشاعات حول اسمي في هذا المضماو. لان دون لويس، كي يدعم مشروعه المعلوم، لجأ الى التشهير بسمعتي الطيبة، بعد أن ساعده أهلي على احتلال المدينة. وبإذاعة هذا النبأ حمّس ساعدك الجبار الذي قضى على المغتصب ودفعه الى الإسراع في انزال ضربته القاضية. ثم بحميّة متبصّرة عرف كيف يحلّ المشاكل العالقة، بمؤازرة احد ذويه، كما علمت. وهذا سرّ يباغتك بمقدار ما فاجأني أنا أيضاً. أنت تنتظرين أمجاد أخٍ أصبح اليوم السيد المطاع في مقاطعة ليون، كما ابرزتّه الاوضاع الحالية. نعم أنا دون ألْفونْسو، مصيري معزّز ومضمون في حمى الاسرة التي تحكم قشتالة، وهو وليد الصداقة والوفاء بين الأمير والملك والدنا. لقد علم دون لويس بكل التفاصيل التي تُكتنف هذا السرّ، وعليه أن يُبيّن للجميع صحّة وقائعه. هناك أمور أخرى تشغل بالي،

وتخلق بمناسبة هذا الحدث، خلافاً حادّاً بين أخي وعاشقي. وقد ولّد هذا السرّ تغييراً طبيعيّاً في اهدافها. واذا برباط الدم الواحد الذي يجمع بيننا قد فصلني انا وعزلني، بسبب الحب الذي استحوذ على فؤادي. وفي هذه الاثناء، وددت ان أجد سبيلاً الى ردّ الجميل للحبيبة دونا أنْيِيس، مقابل سائر الأفضال التي أغدقتْها عليّ بدون حساب. ونظراً الى ما يهدّدها في هذه الساعة من شقاء، أشعر بأن مقاطعة ليون تناديني الى تسنّم العرش الذي ينتظرني، مع أني لا أجد في وضع التاج على رأسي ما يسرّني ويرغّبني. وإن قبلتُ به، فلأتذوّق أفراحه وأتمكّن بالتالي من التعويض عن المتاعب التي سبّبتها لكِ. فأصبح هكذا لي الحق بأن أرجو نيل رضاك. إذاً حدّدي من فضلك بكلمة حاسمة منك، إمّا تحقيق أعزّ أحلامي، أو نهاية عمري قطعاً.

دونا ألْفيرا : لا تتعجّب إن تأخرتُ عليك في الإجابة، يا مولاي. لأن هذه المستجدّات قد أذهلتني للغاية. لا استطيع أن أؤكد لك إن كانت دونا أنْيِيس متوفّاة، أو على قيد الحياة. لكن، بواسطة هذا الفارس، وهو من أخلص اصدقائي، يسعك بدون شك ان تتلقّى أخبارها.

دون سيلفو، أي دون ألْفونْسو : يسرّني من خلال هذا التناقض أن أبصر جمالك الرائع. وأنا أتساءل : ما هي نظرتك الى مستهتر، جريمته أنه ...

دونا أنْيِيس : حذار أن توجّه اليّ إهانة جديدة، أو أن تغامر بادعائك أن قلباً قد أساء اليك. أنا أرفض هذه الفكرة، والاعتذار يجرح فؤادي. ثق بأني لم ألْقَ أية إهانة، وأنا بمعيّة الأميرة، وبأنّ كل ما سبّبْتُه انا لك من ضيق يقبل العذر. أما شوقك اليّ فليس بذنب. وبالنسبة الى الشموخ الذي يبدو مني عادةً، إعلمْ أنك وإن كنت مذنباً، فمن المحال أن تتوصّل الى التقليل ممّا أشعر به نحوك من الإزدراء. ولن تستطيع قوّة على وجه الأرض ان تخفّف من وطأة اهانتك، كي أنساها وأسامحك.

دونا ألْفيرا : كيف تخاطب هكذا، يا أخي، شقيقة روحي العزيزة ؟ أنا أحبّذ ميلك اليها وأبارك المغامرة التي تتوّج الصداقة البريئة الطاهرة المخيّمة على قلبيكما اللذين أخلص أنا لهما الودّ ؟ ...

المشهد السادس

دون كارسيا، ودون الفيرا، ودونا أُنيِيس ...

دون كارْسيا : من فضلك أَخفي عني سرورك، يا سيدتي، ودعيني ألْفظ أنفاسي الأخيرة، وأنا أعتقد أن الواجب لا يخلو دوماً من بعض العنف. أنا أعرف أنك تمتلكين المقدرة على تحقيق أمنياتك التي لا تعارضها رغباتي. فأنتِ تلاحظين ذلك، وأنا لا أقوى على مخالفة وصاياكِ. لكنني أعترف لكِ بأنّ هذا المرح يباغتني بسبب صرامتي، وأخشى ان لا استطيع ضبط شعوري. سأعاقب ذاتي، لو أمكنني تحرير إرادتي من الازعان الذي ألازمه ولا اقوى على مقاومته. أجل، فرضتْ توصياتكِ على نفسي، التألّم بصمت وخضوع من جراء تعاسة حبّي. لأن أمرك الذي أصدرته، جاء ثقيل الوقع على فؤادي، وأنا مصمّم على الموت طوع أوامرك. غير أني، مرةً اخرى أصرّح لك بأن الفرح الذي يُترع صدري يعرّضني الى صدمة قاسية لا تتحمّلها حتى النفس الأكثر حكمةً في هذه الظروف العصيبة، وإن تجاوبتْ بصعوبةٍ وهذه المشاعر الرقيقة. وفّري عليّ، يا سيدتي، ألم هذه الإجابة البليغة، وامنحيني على سبيل الشفقة برهةَ تأمُّل. وإن جار عليّ الزمان، أرجو من عينيْك النجلاوَيْن ألّا تكونا شاهدتَيْن على ما أرزح تحت وطأته من شقاء رهيب. وهذه أقلّ منّة يمكنني أن أطمح إليها من لدنك، لا سميا عندما يخيب أمل عاشق فاشل مثلي. أنا لا أرفض نعمتك، يا سيدتي، لأمد طويل. فإن غيابي سيعفيكِ من المسايرة ويريح قلبك العطوف من هذا العناء. سأذهب الى حيث لا يبلغني نبأ زفافك إلّا عبر الأقاويل. ولن يشكّل ذلك صدمة لي، يا سيدتي، إذْ اني سأدري به بدون ان تبصره عيناي كمشهد انا مضطر الى رؤية ادقّ تفاصيله.

دونا أنْيِيس : دَعْني، يا مولاي، أوجّه اللوم إلى شكواك. فما ألْحقتَ بالاميرة من الهموم، وكذلك هذه الافراح التي تئنّ أنت منها، كلّها مصدرها الحسنات التي تُغدقها عليك. هي في الحقيقة تفتخر بما تحقّق من أحلامك، مع أنها تجد خصماً لك في شخص أخيها، ليس هو إلّا دون ألْفونْسو الذي لهج الجميع بذكره في كل مكان حين شاع سرّه بين الملأ.

دون سيلفو، أيْ دون ألْفونْسو : أشكرُ السماء، لأن قلبي بعد طول العذاب وبدون ان تُحْرَمي أنت من أيّ عزيز لديك، قد تحقّقتْ جميع آمالك. وأنا أتذوّق ان تُحْرَمي أنت من أيّ عزيز لديك، قد تحقّقتْ جميع آمالك. وأنا أتذوّق الآن حلاوة تحقيق أحلى رغباتي، وأستعدّ كلّيّاً لمساعدتك على نيل مراد قلبك العطوف.

دون كارْسيا : يا للأسف، يا مولاي، هذه المنّة ستضايقني، وهي تلبّي أغلى امنياتي. لكنني أخشى ان تنقلب الظروف عليّ، وأن يحظى بالسعادة شخص سواي. لكن كشف هذا السر البهيج يجعلني جانياً في نظر حبيبتي، ويثير ظنونها وشجونها التي طالما نصحوني عبثاً بأن لا أوقظها. لذلك بتّ اخاف التقرّب اليها لئلا أفقد الأمل المنعش بما أرجوه من تتميم سعادتها. نعم، بتُّ لا استغرب أن تكرهني. لاني أجد نفسي غير أهل لنيل صفحها وغفرانها. ومهما ساعدتني أوضاع اليوم، لا أرى أمامي سوى تمّني الموت الذي يريحني من تراكم هموم الحب على رأسي.

دونا ألْفيرا : كلا، كلا، ايها الأمير. أرجوك أن تبدي حيالي بارقة أمل حلو لكي تنسيني ما عانيتُه من حَيْرة وضياع. فإن شكواك واحترامك والامك كلها اخترقت صدري، وأرى فيها صورة حيّة للصداقة الحقّة. كما أني أؤمن بأن تعاستكَ تستحقّ العطف والمواساة. أنا أرى، ايها الامير، ان الواجب يحتّم عليّ أن أكون حليمةً رحيمة إزاء أخطائك ونقائصك السابقة، أكانت غيرتك مزعجة أو لا. فأنا الآن واثقة تماماً بأن شقيقي ومليكي، بدون أي تردّد، يسعه أن يمنحك يدي.

دون كارْسيا : في غمرة هذه الاحداث السارّة، كم يبهجني هذا الإعتراف الخطير، ويسكب على قلبي فيضاً من بلسم السعادة والهناء.

دون سيلفو، أي دون ألْفونْسو : أودّ، يا مولاي، ان يكون هذا الزواج، بعد كل ما دار حوله أخيراً من المناقشات البنّاءة، عنوان اتحاد قلوبنا وبلادنا. لكن الوقت هنا يداهمنا، ومقاطعة ليون تستدعيني. فهيّا بنا ننصرف الى أفراحنا، ونروِ غليل اشواقنا. وبتآزرنا وتضافر جهودنا ومساعينا نتخلّصِ نهائياً من أنصار الطاغية المنهار.

(تمّت)